قضية التصوف

المنقذ من الضلال

الدكتور
عبد الحليم محمود

قضية التصوف
المنقذ من الضلال

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر: دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفضل مخلوق ، وخير مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

قال تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا ﴾ .

(صدق الله العظيم)

مقدمة

التصوف والحياة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :

فإن من الحقائق التى لا مرية فيها : أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج باب الله ، أو يسير فى الطريق إليه ، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له .

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ – فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾[1]

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه ، فيقول :

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2]

---

(١) الإسراء : ٦٥

(٢) ص : آية ٨٢ ، ٨٣

ويقول :

﴿ رب بما أغويتنى لأزين لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٣)

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله ، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ﴾ (٤)

إنه حقق العبودية ؛ فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ؛ وأن يفيض عليه العلم . .

وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق بالعبودية ثماراً كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

﴿ واذكر عبدنا أيوب ، إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصْب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب ﴾ (٥)

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة .

لقد حققها فى ذروتها ، فكانت صلاته ، وكانت نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته لله رب العالمين . . لا شريك له :

---

(٣) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٤) الكهف : ٦٥

(٥) ص : آية ٤١ - ٤٤

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ﴾ (٦)

لقد حققها موفورة تامة ، فآتاه الله عزّ الدنيا والآخرة . .

وبمتابعة الرسول ﷺ ، والاقتداء به ، سار الصوفية على الدرب . . يقول صاحب « عوارف المعارف » :

(الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأقدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس . . ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار ينقى من الكدر . . وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . أدركها ببصيرته النافذة وفرّ منها إلى ربه .

فبدوام تصفية جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره . . فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :

﴿ كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ﴾ (٧)

وهذه القوامية لله على النفس ، هى التحقيق بالتصوف (٨)

ويقول فى موضع آخر :

(والصوفى يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه . . ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر . . ويأتى بالأمور فى مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص) (٩)

---

(٦) الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣

(٧) المائدة : ٨

(٨) عوارف المعارف حـ ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٩) عوارف المعارف حـ ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسى بالرسول ﷺ فيما دق من الأمور ، وما وضح منها . . وفى اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها . . ومن أمثلة ذلك :

فى الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخاً مفصلا لجهاد الصوفية الحربى ، ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة :

كان « شقيق البلخى » وهو من قمم الصوفية الشامخة ، يسارع إلى خوض المعارك لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه . .

انظر إليه : خائضاً المعارك ، محارباً العدو ، مسلحاً بإيمانه ، وثقته فى الله ، وعدّته الحربية . . شاهراً سيفه ، فارساً بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئاً ، مطمئنًا ، كامل الثقة فى الله . .

ولقد وصلت ثقته بالله ، إلى حد أنه -- وهو لا يرى إلا سيوفاً مصلتة ، ورقاباً تقطع ، ورءوساً تتساقط -- يقول لمن بجواره فى هذا الجو : كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك فى سعادة ، تشبه سعادتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك إليك ؟

فأجابه الذى بجواره : لا . . والله . .

فقال « شقيق » : لكنى والله . . أرى نفسى فى هذا اليوم ، مثلها فى الليلة التى زفت فيها امرأتى إلى . .

لقد كان سعيداً بجهاده ، . ومات شهيدًا فى معركة الشرف والبطولة ، فى ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر -- هو من قمم الصوفية أيضاً -- : إنه « حاتم الأصم » : كان

يدخل المعارك ، ويخوضها فى غير خوف ولا فزع ، وما كانت نفسه تطير شعاعاً من الأبطال . . وما كان يقول لها : لن تراعى . لقد كان كيانه كله فى ثقة مطلقة بالله – وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيراً وطرحوه أرضاً ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فىّ . . فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها ، أصابه سهم فقتله . . وقمت سليماً معافى . . . قام سليماً معافى ، ليعاود المعركة من جديد .

وإذا قفزنا فى ساحة الزمن ، قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ، فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية فى قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبّوا مندفعين إلى المنصورة ، ليساهموا فى النصر والاستشهاد فى سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم . ولقد كان – وهذا له أهميته الخاصة – « أبو الحسن الشاذلى » وهو من صفوة الصفوة الصوفية قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة ، مساهماً فى المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل ، لقد كانت تشغله مستيقظاً ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيبته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود .. مشجعاً ، حاثًّا ، مبشرًا بالنصر وبالجنة ، فإذا ما جنّه الليل ، أخذ يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعاً ، خاشعاً ، راجياً التوفيق والنصر ، للأمة الإسلامية .

وفى ليلة من الليالى ، رأى رسول الله ﷺ – فى رؤيا طويلة وأصبح رضى

الله عنه يبشر بالنصر.

ولم تكن هذه هى الموقعة الأولى ، التى أسهم فيها « أبو الحسن الشاذلى » رضى الله عنه -- ولم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة أخرى -- فى ساحة الزمن -- قفزة واسعة ، فإننا نلتقى بالصوفى الشهير : « عبد القادر الجزائرى » .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة فى الحرب . ولقد حارب الاستعمار فى الجزائر ، وفعل بإيمانه القوى ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، فى الشجاعة والإقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل . سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم الشجاعة فى أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد ، شيئاً فشيئاً ، على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يحصلون عليه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير « عبد القادر » النداء تلو النداء ، للأمة الإسلامية ، من أجل العون المالى ، والإنسانى ، ومن أجل العون فى العتاد . . فكانت المساعدات التى قدمت إليه مخجلة ، يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١٠) .

وقوله تعالى :

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ (١١) .

---

(١٠) الأنبياء : ٩٢ .

(١١) المؤمنون : ٥٢ .

إن الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الإخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [١٢] .

ولا تحس بالإحساس الإسلامي .

(المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله) [١٣] .

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) [١٤] .

ترى المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولم يثن كل ذلك الأمير « عبد القادر » ، عن متابعة الحرب ، والكفاح ضد المستعمر ، وحينما أسر ، كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته ؛ ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية — وذلك بعد الأسر — مكث فى « دمشق » يدرس التصوف ، متخذاً « الفتوحات المكية » كتابه المفضل فى الشرح والتفسير . .

ولقد طبع هذه الفتوحات . . وفى أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب « المواقف » . . وهو كتاب فى التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية ، فى مختلف الموضوعات .

فى التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فإننا نبتدئ بذكر كلمة « للإمام ، الكامل الفقيه ، الأصولى ، المفسر ، الإسفراييني » . صاحب كتاب : « التبصير فى

---

(١٢) الحجرات : ١٥ .
(١٣) مسلم .
(١٤) البخارى .

الدين » . . وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض ، والقدرية . . فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو .

علم التصوف والإشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ . . بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السُّلَمى » من مشايخهم ما يقرب من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم . . ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » ، والروافض ، والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرِّى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد » .

بعد هذا نبدأ فى النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشريعة :

يقول الإمام « الغزالى » :

إن الطريق إلى ذلك إنما هو : « تقديم المجاهدة ، أو محو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . . ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب

الغرة ، بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول « ابن خلدون » .

« وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .

وفى فضائل « أبى بكر » ، « وعمر » ، « وعثمان » ، وعلى ، رضى عنهم كثير منها ، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة « القشيرى » « على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

هذا فيما يتعلق بالطريق . .

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال فإن الصوفية -- على وجه العموم -- نبهوا فى صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول الإمام « أبو الحسن الشاذلى » رضى الله عنه :

(من دعا إلى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله ﷺ ، فهو بِدعى) .

ويقول :

(إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة ، فلا تعبأ به) .

ومن أجمل كلماته فى هذا ، قوله :

(ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة . . فمن أعطيهما ، وجعل يشتاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذّاب ، أو ذو خطإ فى العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة

الدواب ، وخلع الرضا) .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج . ومن هؤلاء مثلا : « أبو يزيد البسطامى » الذى يقول فى قوة حاسمة ، وفى نطق صادق .

(لو نظرتم إلى رجل أعطىَ من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة) .

ولقد تحدث الإمام « الجنيد » أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة . ومما قاله فى ذلك :

(الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقته) .

وقال أيضا :

(من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) :

ولقد كان الإمام « الغزالى » ، فى سلوكه ، وفى قوله ، وفى حياته الخاصة والعامة يلتزم الشريعة ، ويقول : إن المحققين قالوا :

(لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان) .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، إنما هو رسول الله ﷺ ، وهم يحاولون – باستمرار – أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله ؛ فهو إمامهم الأسمى فى كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين فى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً﴾ .

وبعد : فقد تبينا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد سار الصوفية فى هذا الطريق ، فأثمر لهم ثماراً سامية كثيرة :

منها الجهاد .

ومنها التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامى فى قمته ، فى جميع فروعه : فى الفقه ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الأخلاق . . .

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشامخة ، التى لا تضارع فيما اجتمع لديها من علوم مدروسة ، مرواة محكمة ، فيها الإتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعى ، أعنى شخصية الشيخ الأكبر « محيى الدين » فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وإن مقارنات مؤرخى الفكر ، بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين ، تصعد به إلى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام « الغزالى » الذى جمع فى إحيائه ، أربعين كتاباً ، كل منها له استقلاله ، وله ذاتيته ، وألف منها -- فى إحكام محكم -- كتابه « إحياء علوم الدين » .

ولقد انهار تحت قلمه فى سهولة ويسر ، عباقرة الفكر الفلسفى ، فتهافتوا ، وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس « تهافت الفلاسفة » .

وأخمد حجة الإسلام بدعة الفلسفة ؛ وعبث الفلسفة فى الشرق الإسلامى .

وللإمام « الغزالى » أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة ، فى الأصول ، والفقه ، والتوحيد ، والفلسفة ، والتصوف .

ولاتزال كتبه تقرأ أو تتداول عليها دائماً طابع النضرة : طابع الخلود .

والصورة الجميلة فى الصوفية – فى الأغلب الأعم – هى صورة « الجنيد » .

لقد كان الكتاب (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه ؛ لألفاظه .

والفقهاء ؛ لتقريره .

والفلاسفة ، لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون ، لتحقيقه .

والصوفية ، لإشاراته وحقائقه .

يقول صاحب « الرسالة القشيرية » عنه :

وكان فقيهاً على مذهب « أبى ثور » وكان يفتى فى حلقته بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة .

ويروى صاحب « الرسالة القشيرية » عن « أبى الحسين على بن إبراهيم الحداد » ، يقول : حضرت مجلس القاضى « أبى العباس بن شريح » ، فتكلم فى الفروع ، والأصول ، بكلام حسن ، عجبت منه ، فلما رأى إعجابى ، قال : أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى .

فقال : هذا ببركة مجالسة « أبى القاسم الجنيد » .

وإذا ذكر « الجنيد » ذكر أستاذه : « الحارث المحاسبى » . وقد كان « الحارث » مثقفاً فى الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان فقيهاً ، وكان محدثاً ، وكان متكلماً ، وكان عالماً فى الأخلاق ، وكان صوفيًّا ، ولقد دخل – فى قوة – كل المشاكل التى وجدت فى عصره ، باحثاً ، مرشداً ، مجادلا هادياً إلى الحق ، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه .

وألف « المحاسبى » الكثير من الكتب ، فى شتى مجالات العلوم .

وليأخذ الإنسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم « السلمى » فى « طبقاته » ، أو الذين ذكرهم « القشيرى » فى « رسالته » ، أو الذين تحدث عنهم صاحب « الحلية » فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة وعكفوا على دراسته تقرباً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما مع علم الكتب ، كان طموحهم إلى العلم الوهبى : العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى سافر « موسى » عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ، ليلتقى فى نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن « موسى » وفتاه :

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ، آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ﴾ .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم – وهو مطمحهم الأخير – لا يتأتى إلا بإخلاص العبودية لله ، لأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون الاستغراق فى العمل : صلاة وذكراً وصياماً . . . من الأسس الجوهرية فى حياة الإنسان ؛ فإنهم

اتجهوا فى صورة موفقة إلى العمل ، لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء. فأفاض الله عليهم من إلهاماته ، واتسم ما دوّنوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة ، وكان طابعه أن يزكو على مر الزمن .

والصورة الحية المثالية لثمار إلهاماتهم هى كتاب « إحياء علوم الدين » لحجة الإسلام وكتاب « الحكم لابن عطاء الله » .

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح فى الهداية على مر العصور .

* * *

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل ، والضرب فى الأرض ، واكتساب الرزق ؟ :

وأبتدئ فى هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية :

القصار ، الورّاق ، الخزّاز ، الخوّاص ، البزّاز ، الحلاج ، الزجاجى ، الحصرى ، الصيرفى ، المقرئ ، الفرّاء :

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغيرهم ، منهم الفقير ، ومنهم الغنى ، ومنهم العازف عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة ، التى يؤدون فيها حق الله ، وينفقون منها فى سبيله ؛ إنهم يؤتون حق المال يوم حصاده :

و﴿ وفى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ .

وهذا مثلا « أبو الحسن الشاذلى » رضى الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

ونقول « مزارع » بالجمع ، لنتابع فى هذا التعبير حديث المؤرخين عنه ، وكان له حصاد ، ودراس . . وكانت له ثيران . . وكان يتاجر . .

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع على رزقى فى دنياى ، ولا تحجبنى بها عن أخراى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها فى أيدينا ، ولا تجعلها فى قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم فى هذا : هو أن الدنيا لا تستعبدهم : وإنما تستعبد غيرهم .

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا لله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم ، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله . .

إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى :

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ .

و « ابن عطاء الله السكندرى » يقص فى كتابه الجميل : « لطائف المنن » .

قصة ثَرِىّ صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة ، فلم يمنعه ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفيًّا .

يقول « ابن عطاء الله » :

« قال بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ، ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت إلى بلد كذا ، فاذهب إلى أخى فلان ، فأقرئه منى السلام ، وتطلب الدعاء منه لى ، فإنه ولى من أولياء الله تعالى :

قال : فسافرت ، حتى قدمت تلك البلدة ، فسألت عن ذلك الرجل ، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك ، فتعجبت من ذلك ، وطلبته فقيل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، وبعد ساعة ، وإذا هو آت فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه .

قال : فازداد تعجبى أكثر من الأول .

قال : فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ .

فاستأذنت ، فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد ، والخدم ، والشارة الحسنة ، فقلت له :

أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده .

قلت : نعم .

قال : إذا رجعت إليه قل له :

إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال : اجتمعت بأخى فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شىء .

قال : لابد أن تقول لى ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال :

صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده ، وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى ، وعندى إليها بقايا التطلع » ا هـ .

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة ، وإن كانت مشهورة ، نوردها عن « الطبقات الكبرى » « للشعرانى » فى اختصار :

يقول الإمام « الشعرانى » — عن هذه الشخصية الصوفية — رضى الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الإمام الصالح الورع الزاهد « شمس الدين الديروطى » ، ثم « الدمياطى » الواعظ .

كان فى الجامع الأزهر أيام السلطان « قانصوه الغورى » ، وكان رضى الله عنه مهاباً عند الملوك ، والأمراء ، ومن دونهم ، زاهداً ورعاً ، مجاهداً ، صائماً قائماً ، آمراً بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع الأزهر مرات ، فرأيته مجلساً تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متخشعاً ، صغيراً ، ذليلا . رضى الله عنه . . وكان إذا مرَّ فى شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بغيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه ؛ رضى الله عنه .

حط مرة على السلطان « الغورى » فى ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته — فلم يرد عليه — فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت . فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ؟ فقال : عندك المال الذى تعمر به . فطال بينهما الكلام . فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان – أما تذكر حين كنت نصرانيًّا ثم أسروك ، وباعوك ، من يد إلى يد ، ثم منَّ الله عليك بالحرية والإسلام ، ورقَّاك إلى أن صرت سلطانًا على الخلق ؟ وعن قريب يأتيك المرض الذى لا ينجح فيه طب ، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبراً مظلماً ، ثم يدس أنفُك هذا فى التراب ، ثم تبعث عريان عطشان جوعان ، ثم توقف بين يدى الحكم العدل ، الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى :

من كان له حق أو مظلمة على « الغورى » فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عدتها إلا الله تعالى ، فتغير وجه السلطان من كلامه ، فقال كاتب السر وجماعة السلطان : الفاتحة يا سيدى الشيخ ، خوفاً على السلطان أن يختل عقله ؛ فلما ولى الشيخ ، وأفاق السلطان ، قال : ائتونى بالشيخ ، فعرض عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج فى دمياط ، فردها عليه وقال : أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك ، وصبرت عليك ؛ فما رؤى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ، ولا أذل من السلطان فيه .

هكذا كان العلماء العاملون ؛ وقد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار : ولم يساعده فيها أحد ؛ إنما كان يعقد الأشربة .

ويتاجر « فى الخيار شنبر » ونحوه ؛ رضى الله عنه ولم يأخذ قط معلوم وظيفة من وظائف الفقهاء ؛ وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس ؛ وقبول صدقاتهم ؛ ويخبرهم أنها تسود وجه قلوبهم ؛ رضى الله عنه . وله مصنفات

منها : « شرح منهاج النووى » فى الفقه ؛ وشرح « الستين مسألة » ؛ وكتاب « القاموس » فى الفقه ؛ وشرح « قطعة من الإرشاد » « لابن المقرى » رضى الله عنه . وكان متواضعاً مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ؛ ولم يصده ما وصل إليه من العلوم ، والمعارف ، والشهرة ، عن ذلك ، ولقد رأيته مرة راكباً فنزل ، وقبل يد أعمى تقوده ابنته ، فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا أقرأنى وأنا صغير حزبين من القرآن ، رضى الله عنه ، فما أقدر قط أن أمر عليه وأنا راكب .

توفى رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ، وله من العمر نيف وخمسون سنة ، رضى الله عنه ، ودفن بزاويته بدمياط ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى سيدى « أبو العباس الحريثى » رضى الله عنه .

وبعد : فلعلنا بذلك قد أزلنا بعض الشبه التى تحوم حول الصوفية بسبب الجهل بهم والله الهادى إلى الصواب . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الفصل الأول

التصوف

- لفظاً
- وتعريفاً
- وطريقاً
- ومصادر
- ونشأة
- ولمحة عامة عنه

حول كلمة : « تصوف »

١ – يروى عن أحد الصالحين : أنه كان يمتنع عن التحدث فيما يتعلق بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ، ولو أمكنه أن يلغى اسمه لفعل راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لها ، إذا نظرنا إلى الآفاق العليا من الروحانية .

وبما يتلاءم مع هذا الاتجاه قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تنزهت عن الفردية والشخصية لنزههم الله عن التسمية تنزيهاً مطلقاً ، ولكن لما شابت الفردية أعمال بعضهم وضع لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : « الصوفية » .

وسئل « الشبلى » رضى الله عنه : لم سميت « الصوفية » بهذا الاسم ؟ فقال :

هذا الاسم الذى أطلق عليهم ، اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه : ولم ينته الرأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التى قيلت ، وأطرفها : ما ذكره « البيرونى » : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : « سوف » اليونانية التى تعنى الحكمة يقول « البيرونى » .

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر فى الوجود إلى غيره فوجوده

كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأى السوفية ، وهم الحكماء ، فإن « سوف » باليونانية الحكمة ، وبها سمى « الفيلسوف » بيلا سويا أى محب الحكمة .

ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سموا باسمهم .

ويرى « البيرونى » أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللا . ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم — للتوكل إلى الصُّفّة ، وأنهم أصحابها فى عصر النبى ﷺ .

ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس . . .

ورأى « البيرونى » هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية « بالصوفى » كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية .

« فالبيرونى » يقول فى صراحة :

« ولما ذهب فى الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم » .

ورأى « البيرونى » إذن لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ : نشأ فى الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها وتداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه ، وألفت معناها العقول ، أى حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، على أقل تقدير مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت فى العهد الجاهلى على ما يرى صاحب « اللمع » .

ولكن إذا كان رأى « البيرونى » لا يستقيم ، فإلام نتجه فى اشتقاق هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً .

١ – فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ – ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ :

فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى .

٣ – ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق « الصوفى » من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة .

٤ – وقول من قال : إنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى : المعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : ينتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن لا يرى الاشتقاق ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفى . وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد للاسم – من حيث العربية – قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب :

لقد استعرضنا الآراء التى قيلت فى هذا الموضوع قديماً ، فهل يا ترى هناك من جديد ؟

٢ – ما رأى الباحثين الحديثين فى أصل كلمة (تصوف) .

يقول الشيخ « عبد الواحد يحيى » :

أما أصل هذه الكلمة : « صوفى » فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة .

إنها فى الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف « الحكيم الإلهى » فيكون الصوفى الحقيقى إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية . إنه (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هى الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، فيما نعلم بهذا الرأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية يستسيغه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير ما حجة .

وإذا تركنا الشيخ « عبد الواحد » لننظر إلى الباحثين فى هذه اللفظة ، فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم « أبا الريحان البيرونى » فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى هو كلمة « سوفيا » اليونانية .

وقد قال بهذا الرأى (فون هامر) من المستشرقين .

واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين .

وأيده فى حرارة « محمد لطفى جمعه » .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو : إنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف : يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية ، وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير « محمد لطفى جمعه » : « يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة) .

وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ، ونقول الآن :

إن أصحاب هذا الرأى يعطون قوة وتأييداً ، لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة « الأفلاطونية » وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور « زكى مبارك » هذا الرأى فى قوة وفى منطق سليم .

لقد كان العرب - حسبما يرى - مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصوا عليه ، فى كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب : فسموا الطب : « الحكمة » وكلمة « حكيم » لاتزال تؤدى معنى كلمة : « طبيب » والفلسفة نفسها سماها العرب « الحكمة » وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » . أما الحكمة الروحانية ، فمن البعيد أن يكونوا لمحوها لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور « زكى مبارك » : فى ظرف ظريف ، وفى صورة من الجد هى تعبر ، أبلغ التعبير ، عن التهكم والسخرية : على أنه ما الذى يمنع أن تكون «سوفيا» بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : «صوف» وهى قديمة فى العربية ؟

إن التصوف ، قديم جدًّا عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف : كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة : « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأى ، على حد تعبير الدكتور « زكى مبارك » : « ليس إلا ضرباً من الإغراب » .

أما الفريق الثانى من الباحثين الحديثين – وهم أكثرية – فإنه يرى أن كلمة « تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

٣ – إننى أرى – كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين –

أن لفظة « التصوف » تنتسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا لبس القميص – كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهذا الرأى : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ، والمرحوم الدكتور « زكى مبارك » والمستشرق « مرجليوث » .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الملبس – وهو مظهر وشكل ورسم – فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .

وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلى للاسم هو المراد مما وضع الاسم له إذ المعنى الأصلى : قد يتطور ويتغير ويختلف ، وقد يقصد عكسه ، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف ، بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلى للاسم ، وما وضع الاسم له ، أو بين الاسم والمسمى ، ولكن ذلك ليس مطرداً .

والواقع أن التصوف معنى معروف ، لا شأن له بالمظاهر والأشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون فى قيمته أو فائدته ، فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، ولو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية للساخرين .

على أننى أرى – كما يرى كثير غيرى وكما يثبت التاريخ – : أن هذه الكلمة « تصوف » لم توضع فى الأصل للتصوف بمعناه العادى ، الذى نفهمه الآن ، وإنما وضعت فى المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ؛ إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا : عادة قديمة جدًّا ، يتمسك بها بعض الناس ، تمشياً مع فكرة دينية وإرضاء لشعور تنسكى .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يترهبون ابتغاء رضوان الله .

ويتمذهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقلى ، يرى أن السعادة فى الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات ، والبعد عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا دينًا أم كان منطقاً فإنه موجود منذ أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد – من ناحية الملبس – فى الصوف : ما يحقق أهدافهم التى تتصل بالتقشف ، والشظف والخشونة ، فهو متين رخيص خشن لا يحتاج ، الإنسان معه فى الشتاء إلى غيره ولا يحتاج إلى تغييره كثيراً ، ذلك أنه

لا يبلى بسرعة فتصوفوا . أى لبسوا الصوف .

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء ، وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم : صوفية ، وأطلق الاسم مصادفة أو تعمداً فذاع وشاع ! وأصبح الزهاد يعرفون – فى البيئات العربية – باسم ! « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين فى العصر الجاهلى تديناً أو منطقيا ، وكانوا موجودين فى صدر الإسلام تديناً أو منطقيًّا ! حتى إذا كانت « رابعة » ، وكان « الجنيد » وكان « ذو النون » . حتى إذا ذاع التصوف وانتشر ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين الصوف ، أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت ، وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية فى حد ذاتها ، ومن لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ، ذهب فى نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهى كلمة موفقة كل التوفيق ، ولعل عناية المقادير : هى التى هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ أنها تمت بصلة حرفية ، نغمة جرسية ، إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول فى الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله ﷺ التى كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم للجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

وسوفيا اليونانية : « التى تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص » .

وكان من التوفيق أيضاً : هذا الغموض نفسه فى أصل الكلمة ، فما من شك فى أن اختلاف المذاهب والآراء فى أصلها : يبين الكثير من معانى التصوف ومن مظاهره .

وبالله التوفيق .

تعريف التصوف

١ – يتجه الكثير من الناس – فى تعريف التصوف – إلى الجانب الأخلاق ، وهذا الاتجاه : شائع عند الصوفية أنفسهم ، وعند غيرهم من الباحثين فى التصوف والمؤرخين له ، ونذكر الآن عدة أمثلة ، نتبين منها هذا الاتجاه :

يقول « أبو بكر الكَتانى » ، المتوفى سنة ٢٣٣ هـ :

« التصوف : خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق ، فقد زاد عليك فى الصفاء » .

وتروى الرسالة القشيرية : أن « أبا محمد الجريرى » المتوفى سنة ٣١١ هـ ، سئل عن التصوف فقال :

« الدخول فى كل خلق سَنِيّ ، والخروج من كل خلق دَنِيّ » .

وأحد تعريفات « أبى الحسين النورى » ، للتصوف – كما تذكره « تذكرة الأولياء » : ينفى عن التصوف أن يكون رسماً ، أو علماً ، ويحدده بأنه « خلق » . إنه يقول :

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعلل ذلك بقوله : لأنه لوكان رسماً ، لحصل بالمجاهدة ، ولوكان علماً ، لحصل بالتعلم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم » .

ويحدد أبو الحسين النُورى – فى تعريف آخر – الأخلاق التى يتكون منها التصوف فيقول :

(التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء) .

هذا الاتجاه الأخلاقى فى تعريف التصوف ، شائع فى الشرق وفى الغرب ، وهو – أيضاً – شائع فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ... ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك – – على الأقل – يدل دلالة لا لبس فيها ، على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف وتعريفه .

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، فى الجانب الأخلاقى الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين فى المحيط الأخلاقى ، وفى المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا محالة ، من الصوفية .

ولو نظرنا فى البيئة اليونانية لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، ومتمذهباً بها ، ومحاولا نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلى ، أو بالأسوة الكريمة ، ذلك هو سقراط ومع ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفيًّا بالمعنى الدقيق لكلمة : (صوفى) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية ، فإننا نجد الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلا صادقاً للشعور الأخلاقى ، فى طهره وصفائه . وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثالى ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفيًّا بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

على أنه من الطبيعي : أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ، ثمرة التصوف .

ومن الطبيعي أيضاً ، أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي ، فما بين الأساس والثمرة ، فهي إذن ملازمة للتصوف وللصوفي ، ملازمة تامة لا تتخلى عنه ، ولا يتخلى عنها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هي التصوف .

٢ – وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق : هو تعريف التصوف بـ « الزهد » .

وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : « التصوف » ، يفهم منها معنى « الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفي » إلا الزاهد في الدنيا .

وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو « الزهد » .

٣ – ويخلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه « صوفي » .

ولا ريب أن « الصوفي » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

ولخلط الناس بين الزاهد والعابد والصوفي ، حاول (ابن سينا » أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم يقول في كتابه « الإشارات » :

١ – المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » .

٢ – المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص

باسم « العابد » .

٣ – المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، مستديماً لشروق نور الحق فى سره ، يخص باسم « العارف » .

و« العارف » عند « ابن سينا » ، هو « الصوفى » .

ويتحدث « ابن سينا » – كما يذكر غيره – أن الزاهد قد يكون عابداً ، والعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهد والعبادة فى شخص واحد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً : « صوفيا » .

ولكن « الصوفى » لا محالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفى وعبادته ، وبين زهد غير الصوفى وعبادته .

وهذه التفرقة : إنما هى فى الهدف ، أكثر منها فى الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة « رابعة العدوية » ، رضى الله عنها ، عن هذا بأسلوب مؤثر ، وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفى ، إنما هدفه الاستمتاع فى الآخرة ، فهو نوع من المعاملة «كأنه يشترى بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

أما الصوفى : فإنه يزهد فى الدنيا ، لأنه يتنزه عن أن يشغله شىء عن الله .

وعبادة غير الصوفى ، هدفها . دخوله الجنة . . كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة : هى الأجر والثواب » فمثله : كمثل الأجير : يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره فى المساء .

أما عبادة الصوفى ، فإنها استدامة لصلته بالله تعالى ، إنه يعبد الله : (لأنه مستحق العبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة) .

وتقول السيدة « رابعة » رضوان الله عليها ، ما معناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فألقنى فيها ، وإن كنت أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم . فلا تحرمنى من رؤيته) .

هذه المعانى الخاصة بأهداف الزهد والعبادة – من حيث كونهما لوجه الله – إنها معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدهية فى محيطهم وفى جوهم :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ .

والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة لا غير ، وهو وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، والزهد الرفيع ، والعبادة المتجردة ، فإنه مع كل ذلك شىء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ، إنه شىء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعدونها من الأشياء اليسيرة ، التى تبعث السرور فى قلب من يجريها الله على يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد فى التصوف قدماً ثابتة ، ولا درجات ممتازة .

٤ – ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التى تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق بالمعنى الحقيقى لهذا الموضوع .

١ – أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٦٨ هـ .

سئل عن الصوفى فقال :

« من صفى ربهُ قلبَه ، فامتلأ قلبه نوراً ، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله » :

٢ – « الجنيد البغدادى » المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف : هو : أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

٣ – « أبو بكر الكتانى » المتوفى سنة ٣٢٢ هـ .

التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤ – « جعفر الخلدى » المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف : طرح النفس فى العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل « الشبلى » عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده

وإذا نظرنا إلى تعريف « الكتانى » ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان – فيما نرى – يكونان – فى وحدة متكاملة – تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثانى : « غاية » .

أما الوسيلة : فهى « الصفاء » .

وأما الغاية : فهى « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق ، وغاية .

وطريقه يتضمن نواحى كثيرة تشير إليها تسميته نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التى كانت السبب فى هذه التسمية ، واتخاذها عنوانًا على هذه الطائفة .

لقد قال جماعة : إنما سميت « صوفية » : لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها .

وقال « بشر بن الحارث » : الصوفى : من صفا قلبه لله .

وقال بعضهم : الصوفى : من صفت لله معاملتهُ ، وصفت له من الله عز وجل كرامته .

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة : « الصوفية » إنما تشير إلى الصفاء ، وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة ، وما دامت « إشارة » فإنه من التعسف أن يجادل إنسان فى أمر انسجامها مع اللغة ، وعدم انسجامها .

ويقول قوم إنهم إنما سموا : « صوفية » لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ، بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف : أى إلى الصف الأول فى العمل على الوصول إلى الله والجهاد فى سبيله .

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة » ، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة ، والتهجد ، وعدم الطمع فى الدنيا ، واستعدادهم الدائم للجهاد فى سبيل الله .

وتشير الكلمة للصفة : أى الصفة الكريمة ، التى لا يتعلق فيها القلب بالمادةوإنما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل .

على أن هذه الوسائل التى تشير إليها الكلمة لها وسائل أخر . هذه الوسائل الأخر منها ما يعبرون عنه بقولهم : « لا يَملكُ ولا يُملك » .

ويعنون بذلك أنه « لا يسترقه الطمع » .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع ، هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا ، حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الجاه ، من الانغماس فى الملذات ، من الجرى وراء المال ، من حب السلطان ، من حب الترف ، من الصفات التى تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف فى هذه الوسائل : أنها تؤدى إلى الصفاء ، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله عليه بها ، إن شاء .

هذه المشاهدة هى أسمى درجات المعرفة ، وهى الغاية النهائية التى يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف ، والفطر الملائكية ، والشخصيات الربانية .

فالتصوف إذن معرفة – أسمى درجات المعرفة بعد النبوة – إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام « الغزالى » فى تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجده يقول فى كتابه الخالد : « إحياء علوم الدين » .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية » .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة .

ومن القصص اللطيفة التى تصور الوسيلة إلى المشاهدة فى سهولة ويسر القصة التالية :

قال « ذو النون » :

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام .

فقلت لها :

من أين أقبلت رحمك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

قلت :

وأين تريدين !

قالت :

إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفيهم لى ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف ... من المطاعم والملذات والولد

ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لروح سرور حل فى بلد

إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأبد

فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

والمشاهدة التى هى الغاية (للصوفية) هى أيضاً تحقيق واقعى للتعبير ، الذى

ننطق به فى كل آونة حينما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هى غاية الصوفى ، وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولا ، أو ما يقوله حروفا .

وما من شك فى أن تعاريف التصوف الكثيرة التى نجدها منثورة هنا وهناك ، والتى تكاد تبلغ الألف إنما تعبر فى أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما كانت كذلك ، إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ إنما هو فى أخذها ، على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف « الكتانى » : التصوف (صفاء ومشاهدة) .

الطريق الصوفى

المقامات والأحوال :

إن الصوفية لهم طريق روحى ، يسيرون فيه !

وهذا الطريق يعتمد أساساً ومنهجاً وغاية على القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

وقد ذكرنا فى غير هذا الفصل بعض كلمات لكبار الصوفية ، تؤكد وتوضح اعتمادهم على القرآن الكريم فى سيرهم إلى الله تعالى .

وهذا الطريق قد جربه الصوفية ، فثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً ، وجوهر الطريق الصوفى هو ما سماه الصوفية : المقامات والأحوال .

والمقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدًا فى إطارها ، حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثانى ، لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك مثلا كمنزل « التوبة » الذى يهيئ إلى منزل « الورع » ، ومنزل « الورع » يهيئ إلى منزل « الزهد » ، وهذا حتى يصل الإنسان إلى منزل المحبة ، وإلى منزل الرضى .

وهذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية ، ولذلك يقولون عنها : إنها مكتسبة .

إنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله سبحانه !

أما الأحوال فإنها النسمات الروحية التي تهب على السالك ، فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطراً ، تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه ، وذلك مثل : الأنس بالله .

وسواء أكنا بصدد المقامات أم بصدد الأحوال ، فإن الصوفية قد اختلفوا فيها بين مجمل لها ومفصِّل .

ولكن الملاحظ أنهم - في وصف المقامات والأحوال - لا يتعارضون . واختلافهم إذن ليس اختلاف تناقض وتعارض ، وإنما هو اختلاف بسط وإيجاز .

ويقول الإمام « أبو نصر السراج الطوسى » عن المقامات .

« والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر والرضى ، والتوكل ، وغير ذلك »[1] .

ويقول عن الأحوال :

« وأما معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار !

وقد حكى عن « الجنيد » رحمه الله ، أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم »[2] .

ويقول الطوسى أيضاً :

« وليس (الحال) عن طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات - كالمقامات التى ذكرناها . وهى - أى الحال - مثل : المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة

---

(١) اللمع : ٦٦ (٢) اللمع : ٦٦

واليقين ، وغير ذلك »[٣] .

ويقول الإمام « القشيرى » عن المقامات :

« والمقام : ما يتحقق به العبد بمنازلته – أى بنزوله فيه ، وبما اكتسب له – من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف .

فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له .

وشرطه : ألا يرتقى من مقام إلى مقام آخر : مالم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد[٤] .

ويقول عن الأحوال :

« والحال عند القوم : معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم ، من : طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو انزعاج ، أو هيبة ، أو احتياج .

فالأحوال : مواهب ، والمقامات : مكاسب !

والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود . .

وصاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله »[٥] .

---

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) الرسالة القشيرية ٢٣٤

(٥) الرسالة القشيرية ٢٣٦ .

حب الله ورسوله :

وهذا الطريق – الصوفى الذى نتحدث عنه – يستند إلى مقياس يزن به نفسه ، وهو : الاقتداء برسول الله ﷺ : ولا يتأتى الاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ، ما لم يملأ حب رسول الله ﷺ جميع أقطار النفس .

ونبدأ إذن بالحديث عن حب رسول الله ﷺ :

يقول الله تعالى :

﴿قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾[٦] .

وفى معنى الآية الكريمة يروى الإمام « البخارى » رضى الله عنه عن « عبد الله بن هشام » قال :

«كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

فقال عمر : فأنت الآن أحب إلى من نفسى !

فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » .

وقول الرسول ﷺ : « الآن يا عمر » أى : الآن وقد صار الرسول ﷺ

---

(٦) التوبة : ٢٤ .

أحب إليك من نفسك ، فقد استقامت أمور الإيمان عندك ، وصرت إلى ما أحب الله ورسوله .

ومحبة رسول الله ﷺ تتضمن كشرط أساسى جوهرى اتخاذه ﷺ قدوة فى السلوك والعمل والدرجة الجوهرية فى القدوة به ﷺ إنما هى متابعته فى إسلام وجهه لله سبحانه وتعالى .

لقد باع رسول الله ﷺ نفسه وماله لله سبحانه ، وكان أول البائعين ، وكان أمثل البائعين ، وحقق بذلك وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به قول الله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧)

لقد اشترى الله فى عقد الإيمان النفس والمال ، بثمن هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه فى سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وإذا بخل بماله فى سبيل الله ، فقد أخل بعقد الإيمان .

وحب رسول الله ﷺ - إذن - إنما هو إيثار ما يحب ، واتباع هديه ، والعمل بسنته فى الإيجاب ، وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم ، مما يحبه الإنسان من أشخاص أو من أشياء .

وفى هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام « البخارى » رضى الله عنه :

« والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده

---

(٧) التوبة ١١١ .

وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا ، تمثلت فيه ﷺ طيلة حياته .

والآية الكريمة ، والأحاديث الشريفة التى رويناها ، تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية أو مع أمور الدنيا ، فإنه يجب على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها .

يقول الإمام « الرازى » :

« إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا . وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا » .

أما بعد :

فيقول صاحب الكشاف عن الآية الكريمة التى صدرنا بها هذا الحديث ما معناه :

« وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء ، والإخوان ، والعشائر ، والمال ، والمساكن ، وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه من أجل حظ من حظوظ الدنيا . فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

ثم أما بعد :

فإن الحب الصادق له ﷺ يتمثل حقيقة فى المحاولة الصادقة ، لالتزام صفاته ﷺ فى النفس والعمل على سيادتها فى المجتمع .

الأسوة الحسنة :

وحب رسول الله ﷺ يستلزم لا محالة التأسى به ﷺ ، يقول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾[٨] .

إن الأسوة برسول الله ﷺ خير ما يحقق النجاة فى الدنيا والآخرة .

فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل الواقعى ، التطبيقى ، للدين الإسلامى !

إنه الصورة الحية للقرآن الكريم ، وفى ميسور كل إنسان الاقتداء به ، إذا توافرت فيه ثلاث شروط ، بينتها الآية الكريمة :

أولها : أن يرجو الله ، ورجاء الله يبينه الله سبحانه بقوله :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً . ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٩] .

فتحقق الرجاء فى الله أن يخلص الإنسان وجهه لله فى العبادة ، وأن يكون من ذوى الأعمال الصالحة ، وإلا كان رجاؤه فى الله شكلا ، لا حقيقة له . وظاهراً ، لا جوهر له .

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار ، بما كانوا يكسبون ﴾[١٠] .

---

(٨) الأحزاب ٢١ .

(٩) الكهف . ١١٠

(١٠) يونس : ٧ - ٨ .

وهؤلاء لا نصيب لهم فى الاقتداء برسول الله ﷺ حيث لم يتوافر فيهم شرط رجاء الله سبحانه .

والشرط الثانى : أن يرجو الإنسان اليوم الآخر .

ورجاء اليوم الآخر هو رجاء النجاة فيه .

ورجاؤه إذن إنما هو بالعمل للنجاة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

ومن لا يرجو اليوم الآخر فليس له فى الاقتداء برسول الله ﷺ من نصيب .

أما الشرط الثالث الذى يجب أن يتوافر فى الإنسان حتى يتأتى له الاقتداء برسول الله ﷺ : فهو أن يذكر الإنسان الله كثيراً .

وقد حدد الله الذكر بالكثرة ونص عليها سبحانه ، والذكر الكثير من سمات المتدينين حقًّا .

والتدين والذكر الكثير من سمات أصحاب العقول الراجحة الذين يذكر الله سبحانه أن من صفاتهم التفكر للعظة والاعتبار فى خلق السموات والأرض .

ومن صفاتهم الذكر فى جميع حالاتهم التى هم عليها ، وذلك كله على أساس من الإيمان الخالص .

يقول الله تعالى فى أسلوب رائع ، وفى معان تتسلسل نورًا وتتلألأ ضياء .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا

سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[11] .

ويعقب الله على ذلك بقوله :

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ !

وبعد :

فإنه إذا توفرت فى الإنسان هذه الشروط ، فقد أصبح جديراً بالتأسى برسول الله ﷺ ، وأصبح بذلك من الذين يحبونه ، والمرء مع من أحب !

التوبة :

وإذا أراد الإنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ ، فيحاول أن يقترب ما استطاع من :

﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.لا شريك له ﴾ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى « الإسلام » كيف يبدأ ؟

ما هى الخطوة الأولى ؟

ما الطريق ؟ ثم إلى أين ؟

ما هى الثمرة المرجوة ، وما هو النفع الذى يعود عليه من ذلك ؟

إنه يبدأ الدخول فى النظام القرآنى !

والدخول فى النظام القرآنى معناه : العزم المصمم على التخلى عما ليس بقرآنى :

---

(١١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤

وهذا ما يسمى فى العرف الإسلامى أو فى النظام القرآنى :
« التوبة » !

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ، وأوجبها فى بعض الأحيان .

والواقع أنها اللبنة الأولى إلى الله ، وهى اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله ، يقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسى ، رحمه الله : أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى : التوبة . وسئل السوسى عن التوبة ، فقال : التوبة الرجوع من كل شىء ذمه العلم ، إلى ما مدحه العلم .

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلا منه ورحمة ، يقول سبحانه فى حديث قدسى ، وفى أسلوب كله رأفة :

(يا عبادى إنك تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم) .

ويقول رسول الله ﷺ :

«كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وما من شك فى أن توبة العوام – كما يقول « ذو النون » رضى الله عنه – هى من الذنوب ، وأما توبة الخواص فإنها من الغفلة ، وتصل التوبة فى سموها فتكون مما سوى الله تعالى . .

ورسول الله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى « يفرح » بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله ﷺ أن ربنا ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى :

(ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه) .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى صورة من تجلى الرحمة وسعة من شمول الرأفة بالعباد :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقطنوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم ، وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ .

أى : ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له .

ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى :

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون ﴾ .

والله سبحانه وتعالى فى هذا يوجه الذين صدقوا فى توبتهم إلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع – كلازم من لوازمه – أن يستقيم الإنسان على الطريق .

والله سبحانه يسد على الذين يبين لهم الطريق باب المعاذير فيا بعد ، مهدداً تهديداً يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم !

يقول سبحانه :

﴿ أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين . أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول – حين ترى العذاب – : لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ .

فإذا ما قال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة :

﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها ، واستكبرت ، وكنت من الكافرين ﴾ .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافر والمؤمن يوم القيامة فيقول :

﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين . وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

والآن : قد وضح الطريق ! فهو :

أولا : التوبة .

وثانياً : اتباع أحسن ما أنزل الله .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم – متابعة للأوضاع الإسلامية – يبدءون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدءون شهر رمضان بالتوبة ، ويبدءون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة « الإسراء والمعراج » بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا ، إنما هو التوبة الخالصة النصوح ؛ لأن التوبة تطهر وطهر .

وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ، ويغسلانه بالثلج والبرد ، أو بماء زمزم ، أى : يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تجبُّ ما قبلها ، أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط ، لابد من توافرها ، حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة !

يقول الإمام « النووى » فى رياض الصالحين :

« قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة :

هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ، مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة » ، هذا فيما يتعلق بالتوبة .

وبقى الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله !

وأتباع أحسن ما أنزل الله يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين فى الإسلام ، أعنى مواد البيعة .

ومن المبايعات التى بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح

مكة ، بل قبل الهجرة إلى المدينة ، كما فى بيعة العقبة ، فيها قال الرسول ﷺ لمن حضر من الأنصار – فيما ذكره « ابن إسحاق » – :

« بايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنة ... » .

ومن هذه المبايعات ما كان بعد هذه البيعة .

روى « البخارى » بسنده عن « عبادة بن الصامت » أن رسول الله ﷺ قال – وحوله عصابة من أصحابه – :

بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ؛ إن شاء عفا عنه ؛ وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء يقول تعالى :

﴿ يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم ﴾ .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة ، بعد بيعة الرجال ، ويتحدث «ابن جرير» عن هذه البيعة فيقول :

« ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلا :

« بايعنى على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينى فى معروف » .

ثم قال ﷺ « لعمر » :

« بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وروى عن « جرير بن عبد الله » رضى الله عنه ، قال :

بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

الورع :

وإذا صدقت التوبة ، استلزمت لا محالة : الورع .

والورع هو أن يترك الإنسان كل ما فيه شبهة .

ولا نتحدث عن ترك الحرام : وذلك أن التوبة الصادقة إنما هى – أولا وبالذات – توبة عن الحرام : كل الحرام .

وتوجيه رسول الله ﷺ – متناسقاً فى ذلك مع القرآن – كثير مستفيض فيما يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن « النعمان بن بشير » قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير

من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب [١٢] » .

ومن ذلك ما رواه « الحسن بن على » رضى الله عنهما قال :

« حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى مالا يريبك » .

رواه « الترمذى » وقال حديث حسن صحيح ، ويقول الإمام « النووى » معناه : اترك ما تشك فيه ، وخذ مالا تشك فيه .

وعن « عطية بن عروة السعدى » الصحابى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ؛ حذراً مما به بأس [١٣] .

والورع يكون فى الحديث ، والقلب : والعمل .

أما فى الحديث : فإنه التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .

والورع فى الحديث ليس سهلا ، ويقول فيه الإمام « القشيرى » :

الورع فى المنطق أشد منه ، فى الذهب والفضة .

ولا تدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك أننا فى مستوى لا ينزل إلى

---

(١٢) متفق عليه .

(١٣) ورواه الترمذى وقال حديث حسن .

مستوى الآثام والذنوب .

والورع فى القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع فى القلب حتى يصل إلى ما يقوله الإمام « الشبلى » وهو من كبار أئمة التصوف :

« الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله » . .

أما الورع فى الأفعال ، فإنه يتضمن التحرى فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يتحرون فى ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور فى القلب ، والصفاء فى العبادة ، والتيسير فيما يأتى الإنسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم ، والمشرب ، والملبس .

والجو الإسلامى كله يحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما يلى :

عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ :

﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ﴾ .

فقام « سعد بن أبى وقاص » ، فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة .

فقال : يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا ، فالنار أولى به » .

وعن أبى « هريرة » رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون عليم ﴾ .

وقال :

﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ؟ » .

وتروى لأئمتنا فى هذا الجانب قصص منها ما يلى :

يقول « أبو على الدقاق » :

كان « الحارث المحاسبى » إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال .

وقال : إن « بشراً الحافى » دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه :

إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟ ! .

كلمات لأئمتنا فى الورع :

يقول « القشيرى » :

« أما الورع فإنه : ترك الشبهات » .

ويقول « إبراهيم بن أدهم » .

« الورع ترك كل شبهة ، وترك مالا يعنيك » .

وقال « أبو سليمان الداراني » :

« الورع : أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضا » .

ويقول « يحيى بن معاذ » :

« الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وهو : ألا يتحرك إلا لله تعالى . وورع في الباطن ، وهو : ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى » .

ودخل « الحسن البصري » مكة ، فرأى غلاماً من أولاد « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه « الحسن » وقال له :

ما ملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع .

فتعجب « الحسن » منه .

الزهد :

يقول الإمام أبو نصر سراج الطوسي :

« والورع يقتضي الزهد » .

ويقول : « والزهد مقام شريف : وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد ، لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا

رأس كل خير وطاعة »[١٤] .

ومسألة الزهد من المسائل التى كثر الجدل فى تحقيق مفهومها ، وكثر الجدل فيها قبولا ورفضاً .

وجوهر المناقشات يتركز حول امتلاك المال ، والثراء العريض : أهو مقبول ؟ أهو مكروه ؟ ما هو موقف الدين من ذلك ؟

وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟

كيف ملك الأنبياء عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل : « داود » ، « وسليمان » و « إبراهيم » و « أيوب » ونظائرهم ، و« يوسف » ، عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعده ؟

حول هذه الأسئلة يدور جوهر الحديث فى الزهد .

وقد سبق أن كتبنا عدة مرات فى هذا الموضوع فى عدة من كتبنا ، ولا نريد هنا أن نكرر ما سبق أن كتبناه ، وإنما نحب – بتوفيق الله – أن نورد نصًّا – وإن كان مطولا – من النصوص النفيسة فى هذا الموضوع ، وهو نص قد وفق الله سبحانه « أبا سعيد الخراز » لكتابته فى صورة دقيقة محكمة ، ونراه فيصلا فى هذا الموضوع .

يقول « أبو سعيد » فى كتاب « الصدق » :

« اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم ، رضى الله عنهم : أمناء الله تعالى ، فى أرضه على سره ، وعلى أمره ، ونهيه ،

(١٤) اللمع : ٧١– ٧٢ .

وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاء له فى خلقه وبريته وهم الذى عقلوا عن الله تعالى ، أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلام ندبهم ؟ فوافقوه فى محبته ، ونزلوا فى الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين عن الله ، والحافظين لوصيته ، وأصغوا إليه بآذان فهومهم الواعية ، وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عن ندبته ، فسمعوا الله - عز وجل - يقول :

﴿ آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[١٥] .

ثم قال :

﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[١٦] .

وقال تعالى :

﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾[١٧] .

وقال تعالى :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[١٨] .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ما خولهم ، وملكهم ، إنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار .

وهكذا يروى عن « ابن الخطاب » رضى الله عنه ، حين سمع :

---

(١٥) الحديد : ٧

(١٦) يونس : ١٤

(١٧) البقرة : ٢٨٤ .

(١٨) الاعراف : ٥٤ .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾[19] .

قال : ياليتها تمت ! – يعنى « عمر » قبل قراءة :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ .

ومعنى قول « عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمت » يعنى : لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

وذلك من معرفة عمر – رضى الله عنه – بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وماتواعدهم به إذا ضيعوا .

ويروى عن « الحسن » رضى الله عنه أنه قال :

« إن الله تعالى إنما أهبط آدم عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .

فمن ملك – من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق – شيئاً من الدنيا ، فهو معتقد : أن الشيء لله جل وعز ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما خوله الله تعالى ، وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ، لأن النعمة بلاء ، حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى :

وكذلك البلوى والضراء ، هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه !

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله عز وجل :

---

(١٩) أول الدهر .

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ﴾[٢٠] .

وقال :

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم ﴾[٢١] .

فالأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحون من بعدهم ، الذين شعرهم الله : بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة ، وخولهم : كانوا إلى الله – جل وعز – ساكنين ، لا إلى شىء ، وكانوا خزاناً لله – جل ذكره – فى الشىء الذى ملكهم ، ينفذونه فى حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ، ولا مشغولى القلوب بما ملكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن « سليمان بن داود » – عليهما السلام – فى ملكه ، وما أباحه الله تعالى – من الكرامة ، حين يقول تعالى :

﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾[٢٢] .

قال أهل التفسير : « لا حساب عليك فى الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله – عز وجل – له .

فذكر العلماء : أن « سليمان » عليه السلام «كان يطعم الأضياف الحوارى ، – وهو لباب البر ، وخالص الدقيق – النقى ، ويطعم عياله الخشكار – وهو الدقيق الخشن . . . ، ويأكل هو الشعير » .

---

(٢٠) الملك : ٢

(٢١) القتال : ٣١

(٢٢) ص : ٣٩ .

وكذلك روى العلماء : أن « إبراهيم الخليل » – صلوات الله وسلامه عليه :

« كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه الضيف فيطويها ، وربما كان يمشى الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر ، تلقياً للضيف » .

قال : « وكان « أيوب » النبى – ﷺ – لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله ، فكفر عنه » !

وروى العلماء . أن « يوسف » عليه السلام ، كان على خزائن الأرض ، فكان لا يشبع ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

« أخاف أن أشبع ، فأنسى الجياع » .

ولقد روى : أن « سليمان » – عليه السلام « بينما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قميص جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة فسكنت الريح ، ووضعته على الأرض » .

فقال لها : مالك ؟ قالت : إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله .

ففكر فى نفسه : من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » .

ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه فى اليوم مرات ، من هذا وأشباهه » ! فالقوم : كانوا خارجين عن ملكهم فى ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده إن فقدوه ، ولا يفرحون بالشىء ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة فى إخراجه .

قال الله – تعالى – للنبى ﷺ :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٢٣] .

---

(٢٣) الأنعام ٩٠

وهذا النبى – ﷺ : « بينما جبريل – عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، إذا ملك قد نزل من السماء ، لم ينزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فى أمر ، فجاء إلى النبى ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا ننقصك مما لك عند الله شيئاً !

فلم يختر النبى ﷺ ذلك وقال :

« أجوع مرة ، وأشبع مرة » !

وعد ذلك من الله عز وجل – بلوى – واختبارا ، ولم يره من الله تعالى اختياراً ، ولو كان من الله تعالى – اختياراً لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى فى الترك للدنيا ، والإعراض عن زينتها ، وبهجتها .

ولذلك أدبه الله تعالى – حين قال تعالى :

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه﴾ (٢٤) .

ويروى عنه ﷺ : أنه لبس حلة فيها علم ، فطرحها ، وقال : كادت تلهينى أعلامها – أو قال : ألهتنى أعلامها ، خذوها واتئونى بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع خاتم ذهب ليخثم به الكتب ، إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ، ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه : إليه نظرة ، وإليكم نظرة » ! .

وكذلك روى : « أنه ﷺ ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه جديداً . فقال : ردوا الشراك الأول » !

---

(٢٤) طه : ١٣١

وكذلك كل قلب طاهر صاف ، قد أشرف على الآخرة ، وعرف قيام الله تعالى عليه : يفزع من خفايا الكون إلى الدنيا ، والتحلى بشىء منها .

ومثل هذا فى الأخبار كثير ، والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشىء :

وهؤلاء أصحاب محمد - ﷺ - حين حثهم على الصدقة . جاء « أبو بكر » بماله كله ؛ لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبى ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد !

أفلا ترى « أبا بكر » - رضى الله عنه - إنما كان سكونه إلى الله تعالى ، لا إلى الشىء ، ولم يكن لشىء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسر ؟ !

فحين رأى موضع الحق ، لم يخلف منه شيئاً . وقال : خلفت الله ورسوله !

ثم جاء « عمر » - رضى الله عنه - بنصف ماله ، فقال النبى - ﷺ - ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالى ، ولله عندى مزيد !

فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : ولله عندى مزيد !

ثم « عثمان » - رضى الله عنه - يجهز جيش العسرة كله ، بجميع ما يحتاج إليه ، ويحفر « بئر رومة » !

أفلا ترى أن القوم كانوا معدين الشىء لله تعالى ؟ !

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم ، يعدونه لله عز وجل !

وقد روى عن النبى ﷺ - أنه قال :

إنا معشر الأنبياء لا نورث ، وما خلفناه صدقة ؟

أفلا ترى أنهم فى حياتهم لم يضنوا بالشىء عن الله عز وجل ؟ !

وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله – عز وجل – كما كان فى أيديهم لله تعالى ، لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحدًا !

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله ، وأنصف من نفسه . .

وهؤلاء : أئمة الهدى بعد رسول الله – ﷺ – « أبو بكر » رضى الله عنه – حين ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم يتصنع ، وكان عليه كساء يخلله – أى يخيط ما به من خلل وشق – وكان يدعى ذا الخلالين !

وهذا : « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه – حين جاءته الدنيا راغمة من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفى ثوبه بضع عشرة رقعة ، بعضها من أدم – وقد فتحت عليه كنوز (كسرى) و (قيصر) !

وهذا : « عثمان » – رضى الله عنه – كأنه واحد من عبيده فى اللباس والزى !

ولقد روى عنه : أنه رؤى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

أردت أن أنظر نفسى ، هل تأبى !

أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟

وهذا : « على بن أبى طالب » – رضى الله عنه – فى الخلافة ، قد اشترى إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول ، فتقدم إلى خراز – أى خياط – فأخذ الشفرة فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنة ويسرة !

وهذا : « الزبير » – رضى الله عنه – يخلف – حين مات – من الدين مائتى ألف ، أو أكثر ، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !

وهذا : « طلحة بن عبيد الله » – رضى الله عنه – يعطى حلى أهله لمن سأله .

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله – عز وجل – حين أمرهم فقال :

﴿ أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه(٢٥) ﴾ .

ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من الشبهات التى علم الله تعالى : كيف هى ؟ ومن أين هى ؟ وكيف قدرها فى قلبه ؟ وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله عز وجل ؟ ومالا يحصى من عيبه فى تقلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟(٢٦) .

حتى إن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم فى اتباع هواه ، مع إقامته على خلاف سنة القوم .

بل الاعتراف لله تعالى بالتقصير من العبد الغافل : أقرب إلى النجاة ، وسؤاله الله – عز وجل – أن يبلغه ما بلغ القوم ؛ وبالله التوفيق .

التوكل :

الإسلام أن يسلم لله قلبك . إنه التوحيد .

وهو ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

---

(٢٥) الحديد : ٧

(٢٦) كتاب الصدق ٣٥–٤٥ .

، وهو : إسلام الوجه لله .

وذلك يقتضى التوكل على الله ، كجزء لا يتجزأ عن الإسلام .

ويتلون التوكل بحسب درجاته ، ويأخذ اسماً تبعاً لدرجته ، فيكون : « توكلا » ويكون « تسليماً » ، ويكون « تفويضاً » .

والتوكل بداية هذا المقام الروحى ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، إن كان للثقة فى الله نهاية .

ومع ذلك فإن كلمة « التوكل » تطلق على كل درجاته ، وتستعمل فى كل أنواعه ، وعلى هذا الوضع يأمر سبحانه وتعالى به ، جاعلا منه صفة لا تنفك عن الإيمان قائلا :

﴿ وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ويأمر سبحانه به أمراً مطلقاً كل مؤمن فيقول :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

وإذا توكل الإنسان على الله سبحانه فإن ثمرة ذلك أمران :

الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

والأمر الثانى هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

وهناك ثمار ، هى تفصيل لهذين الأمرين ، أو هى نتائج لهما : نتحدث عنها إن شاء الله تعالى .

ومع أن أمر التوكل فى الجو القرآنى ، وفى جو السنة ، واضح كل الوضوح ، فإن الناس جعلت من التوكل مشكلة : يتجادلون فيها ويختلفون ،

وتتجدد المشكلة كلما جاء ذكر للتوكل ، ومن أجل ذلك نحب بتوفيق الله – مع أن الأمر بين واضح – أن نلق ببعض الأضواء فى هذا المجال .

لقد سئل « يحيى بن معاذ » – وهو من أئمة الصوفية – : متى يكون الرجل متوكلا ؟

فقال : إذا رضى بالله تعالى وكيلا . .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التى ظهر فيها أن المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله وكيلا ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين فى غزوة أحد :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل ﴾ .

ماذا كانت النتيجة ؟

إنها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ﴾ .

من هم هؤلاء ؟ إنهم :

﴿ الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ﴾ .

ما هى قصتهم ؟

إن مشركى مكة لما أصابوا من المسلمين يوم أحد ، أخذوا فى العودة إلى مكة ، فلما استمروا فى سيرهم ندموا : لم لم يتمموا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصلة ؟ وكان من كلامهم :

لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا . وأرادوا

العودة إلى المدينة .

ولكن « أبا سفيان » لم ينس يوم بدر ، ولم ينس أن الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة أمثالها ، مع وفرة العدة فى الكثرة ، فأحب أولا أن يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ، أن مرَّ به ركب من « عبد القيس » ، فقال : أين تريدون ؟ . . قالوا : نريد المدينة . .

قال : ولم . . قالوا نريد الميرة .

قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم فى مقابل ذلك زبيباً بعكاظ ، إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم !

قال : إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه . وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال « أبو سفيان » وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ﴾ .

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحاً ضمد جرحه ، ومن كان قد كلَّ سيفه أحدَّه ، ومن كان أمره متفرقاً فى نفسه ، أو ماله أصبح أمره جميعاً . . واستعدوا لخوض المعركة ، بكل ما يملكون من وسائل . .

وكان « أبو سفيان » ينتظر نتيجة الرسالة ، وما تحدثه من صدى . .

ورجع واحد من وفد « عبد القيس » يقول « لأبى سفيان » :

« لقد رأيتهم كالأسد الموتورة ، عازمة على الأخذ بالثأر » .

ولما سمع « أبو سفيان » ذلك أخذ فى العودة إلى مكة ، طلباً للسلامة . .

والتوكل – إذن – والمتوكلون يتخذون الأسباب ، ويستعدون كأكمل ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد . .

وصورة أخرى للتوكل :

يقول الله تعالى على لسان سيدنا « هود » :

﴿ إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ .

أخذ سيدنا « هود » عليه السلام يعمل على نشر الحق الموحى إليه ، الحق الذى دعا إليه كل نبى ورسول ، والذى يتلخص فيما قال عليه السلام .

﴿ يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ﴾ .

وابدءوا فى ذلك بالاستغفار والتوبة ، فإذا استغفرتم وتبتم إلى الله ، فإن عنايته سبحانه تحيط بكم ، ورعايته تكلؤكم :

﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ .

ولكن قومه أعرضوا عنه ، ولم تفدهم الأمثلة بالذين أعرضوا عن الله ، فنكل بهم ، وقالوا :

﴿ يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ﴾ .

وأخذ الصراع بين هود وقومه يشتد ، ويعنف ، حتى إذا استصفى هود جميع عناصر الخير منهم ، واستخلص منتهى ما يمكن استخلاصه من أشخاص

آمنوا به ، ولم يبق إلا من لا خير فيه : جاءهم عذاب الله ، دون أن يصيب هودًا والذين آمنوا معه ، يقول تعالى :

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ . .

أما الذين لم يؤمنوا به ، واستكبروا ، وغرهم الباطل ، فإن الله سبحانه وتعالى أهلكهم جميعاً ، بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . .

ونحب – بتوفيق الله – أن ننبه أولا إلى أن الله سبحانه بين فى هذه القصة – كما يروى « القلشانى » – وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، وأن ربوبيته شاملة لكل أحد ، ومن برب – يدبر – أمر المربوب ، ويحفظه فلا حاجة له إلى كلاءة غيره ، وحفظه .

وننبه ثانياً : إلى أن التوكل ليس ترك الأسباب ؛ فقد أخذ « هود » يناضل ويكافح ، ويدعو إلى الله سبحانه بكل وسيلة شريفة يستطيعها ، يقول الإمام « الغزالى » :

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض ، كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع .

إن المعنى الحقيق للتوكل : هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازمًا أن الأسباب الظاهرة ، لا تلغى إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب فى أسسها وبواعثها ، وهى مشرفة على الأسباب فى غاياتها ، ونهاياتها ، وعلى

الإنسان أن يعمل ، كما أمر الشرع ، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان إمام المجاهدين المكافحين ، الآخذين بالأسباب ، وسيدنا « أبو بكر » رضى الله عنه حينما بويع بالخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق ، يتَّجر كعادته ، فتكاثر عليه المسلمون قائلين ! كيف تفعل ذلك ، وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال لهم :

« لا تشغلونى عن عيالى فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع » .

حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ، ويكتسبون ، وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين .

وبعد : فإن الإمام « القشيرى » – من أئمة الصوفية – يقول :

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شىء فبتقديره ، وإن انفق شىء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى :

إذا آمن الإنسان بذلك – ولابد أن يؤمن به – فهو متوكل . .

والمتوكل يتخذ الأسباب ، اقتداء برسول الله ﷺ .

والآن نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد غزوة أحد ، لنصل إلى غزوة الأحزاب ، ولنصل إلى صورة التوكل الذى يتلون بلون التسليم .

إن من التوكل الذى يتلون بلون التسليم ، ما يحدثنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

لقد زادتهم رؤية الأحزاب – الجيوش الجرارة التى أتت لتهدم المدينة ، وتقتل من فيها – إيماناً وتسليماً . .

ماذا فعلوا ؟

لقد سهروا ليلا ، وأقاموا نهاراً من وراء الخندق ، يرقبون حركات العدو ، ويستعدون لكل شأن من شئونه .

لقد لبسوا دروعهم ، وتسلحوا بسيوفهم ، وأقواسهم ، وسهامهم .

لقد أحكموا كل أمر من أمور الحرب ، بحسب طاقتهم ، ولكن الأمر فيما يسلمون به لله كله : ﴿ إليه يرجع الأمر كله ﴾ .

﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ : إيمانا قلبيًّا وتسليماً قلبيًّا . .

وإن من الملاحظات التى لا تخفى على قارئ القرآن أن آية الأحزاب هذه سبقها مباشرة قوله تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ﴾ .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ فى توكله ، واتبعوه مسلمين فى استعداده وتأهبه ، لقد اتخذوه قدوة .

ويقول الإمام « سهل بن عبد الله » – من أئمة التصوف – هذه الكلمات الجميلة حقًّا الصادقة حقًّا :

التوكل حال النبى ﷺ ، والكسب سنته فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته .

ويقول :

من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان ،

أما كيف عرف « سهل » نفسه التوكل ؟ فإنه قال :

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد :

وهى كلمة نفيسة . . الاسترسال مع الله على ما يريد ، فى كل ما أراد سبحانه :

فى الجهاد فى الضرب فى الأرض ، طلباً للرزق ؛ فى التزود من العلم ، فى حسن الخلق .

إنه الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهذا يقتضى أن يسكن الإنسان إلى النتائج بعد أن يكون قد اتخذ الأسباب ، بقدر طاقته ، ويقتضى أمراً آخر هو : الابتعاد عن كل مالا يريد سبحانه .

وبعد : فإن هذا التعريف لسهل رضى الله عنه يتناسق مع تعريف الإمام « حمدون القصار » — من كبار الصوفية — حيث سئل عن التوكل فقال :

التوكل : هو الاعتصام بالله تعالى .

إنه الاعتصام بالله تعالى فى اتباع أوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى فى اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى فى الحركة ، وهو الاعتصام بالله فى النتائج ، أى السكون إليه فى كل ذلك ، السكون المصاحب للنضال المتواصل مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثالثة يقصها القرآن الكريم : تبين صورة للتوكل الذى يتلون بلون : التفويض .

قصة رجل مؤمن صادق الإيمان وقف ناصحاً فى وجه الطغيان والجبروت ، يدعو إلى الله ، ويبشر بالتعاليم الصادقة ، وينذر ، ويهدد بعقاب ، فى أسلوب قوى ، لا يخشى فيه لومة لائم .

تلك قصة « مؤمن آل فرعون » الذى بعد أن نصح وبشر وأنذر ، قال :
﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾.

وكانت النتيجة ما قصه الله تعالى بقوله :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

ويحسن أن نذكر القصة بتمامها من كتاب الله سبحانه ، كما وردت فى سورة غافر ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال الذى آمن يا قوم أتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب .

ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار .

تدعوننى لأكفر بالله ، وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار .

لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار .

فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد . .
فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

ومن كل ما تقدم ننتهى كما بدأنا ، بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الإيمان ،

والصورة المثلى فيه ، هى صورة رسول الله ﷺ ، الذى كان إمام المتوكلين ، وكان إمام المناضلين ، ومن بعده صورة « أبى بكر » رضى الله عنه ، والصحابة الأجلاء الذين كانوا متوكلين ، وكانوا مناضلين فى الحرب ، وفى التجارة ، وفى الزراعة . .

وبعد ، فيقول الله تعالى :

﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

المحبة :

يقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ؛ ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » .

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه .

وأولياؤه هم :

﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى .

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله تعالى :

آذنته بالحرب .

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه .

وأول خطوة فى هذا الطريق :

أداء ما افترضته عليه .

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول – شرط القرب منه سبحانه – وهو أداء الفرائض .

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب .

بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله : لقد ترك قوم العمل وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا – كما يقول رسول الله ﷺ – لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

لابد من أداء الفرائض ، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل .

ومع أداء الفرائض – فى جو القرب – الإكثار من النوافل : فإذا أكثر من النوافل ، أحبه الله تعالى :

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير ، الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى .

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطاً محكماً بين محبة الله تعالى ، واتباع رسول الله ﷺ متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل : إن كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ﴾ .

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل .

ومقدمات محبة الله تعالى هى العمل ؛ ونتيجة محبة الله تعالى هى العمل .

يقول الإمام « أبو سعيد الخراز » :

« وبلغنا عن « الحسن البصرى » رضى الله عنه : أن ناساً قالوا على عهد رسول الله ﷺ : يا رسول الله إنا نحب ربنا حبًّا شديداً ، فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عز وجل :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[27] ﴾ .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ ، فى هديه ، وزهده ، وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله عز وجل جعل محمداً ﷺ ، علماً ودليلا ، وحجة على أمته .

ومن صدق المحبة لله تعالى ، إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك ، وهواك ، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره ، قبل أمر نفسك » اهـ ويقول :

« فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجارى[28] مع طرقاته فى كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل مالا يعينه على مذهبه[29] » .

أما عن صلته بالإيمان فإن الإمام « الغزالى » يقول :

« وقد جعل رسول الله ﷺ – الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال « أبو رزين العقيلى » : يا رسول الله ! ما الإيمان ؟ قال :

« أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » .

وفى حديث آخر .

---

(٢٧) آل عمران ٣١ .

(٢٨) التجارى : المسايرة : أى المتابعة .

(٢٩) مذهبه : قصده وطريقه .

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين »

وفى رواية : « ومن نفسه » :

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين[٣٠] ﴾ .

وإنما جرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار [٣١] .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله « يحيى بن معاذ » :

« إلهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : ستراً وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضا ، وحباً . . . تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك . ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طرّ شاربى ، ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ؟ وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ؛ لأنى محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف . . . !

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه :

---

(٣٠) التوبة : ٢٤

(٣١) المنقذ : ٩٣ - ٩٤ .

﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

الرضا :

وإذا كانت المحبة تبعها الرضا ؛ وذلك أن المحب راض دائماً عن أعمال محبوبه .

وللرضا فى الإيمان ركائز قوية ؛ وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حكيم وتصرفاته – سبحانه – تجرى على مقتضى الحكمة . ويعتقد المؤمن أنه سبحانه رحمن . وتصرفاته – سبحانه – تجرى على مقتضى رحمته الحكيمة . وحكمته الرحيمة .

فإذا ما وصل المؤمن مع ذلك إلى محبة الله تعالى . فقد أصبح راضياً الرضا كله . ودخل فى نطاق :

﴿ رضى الله عنهم . ورضوا عنه ﴾ .

ولكن أمر الرضا يلتبس على بعض الناس . فيما يتعلق بالسلبية والإيجابية .

هل الرضا يتنافى مع العمل ؟

هل الرضا يقتضى ألا يحاول الإنسان الخروج من الضيق إلى السعة ؟ ومن الذل إلى العز ؟ ومن الهزيمة إلى النصر ؟ ومن العسر إلى اليسر ؟ ومن الحسن إلى الأحسن ؟ ومن الشريف إلى الأشرف ؟

هل الرضا أن تسكن مستسلماً ؟

كلا ! ! !

وإذا اتجه أحد إلى ذلك فإنه يكون تلبيسًا إبليسيًا – على حد تعبيرات ابن « الجوزى » .

إن القرآن الكريم يذكر الرضا فى مناسبات . منها :

﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين ، إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريباً ﴾ .

لقد رضى الله عنهم ، وهم يبايعون على الجهاد ، وعلى الموت فى سبيل الله !

إن البيعة كانت على القتال ؛ لتحقيق العزة لله ولرسوله !

إنها كانت بيعة على الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى :

يقول الإمام « الألوسى » :

« وأصل هذه البيعة – وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها : (لقد رضى) . . إلخ – أن النبى ﷺ – لما نزل الحديبية بعث « خراشاً » – بكسر الخاء المعجمة ، وفتح الراء المهملة ، وألف بعدها شين معجمة – « ابن أمية الخزاعى ، رسولا إلى أهل مكة ، وحمله على جمل له ، يقال له : « الثعلب » ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالا ، فلما أتاهم ، وكلمهم عقروا جمله ، وأرادوا قتله ، فمنعه «الأحابيش» فخلوا سبيله حتى أتى الرسول – ﷺ فدعا « عمر » رضى الله تعالى عنه ليبعثه فقال : يا رسول الله إن القوم قد عرفوا عداوتى لهم ، وغلظى عليهم ، وإنى لا آمن وليس بمكة أحد من « بنى عدى » يغضب لى إن أوذيت . فأرسل « عثمان بن عفان » ؛ فإن عشيرته بها ، وهم يحبونه ، إنه يبلغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ « عثمان » فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره عليه الصلاة والسلام أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى يظهر دينه بمكة ، فذهب

« عثمان » رضى الله تعالى عنه إلى قريش ، وكان قد لقيه « أبان بن سعيد بن العاص » ، فنزل عن دابته ، وحمله عليها وأجاره . فأتى قريشاً فأخبرهم فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت . وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال رضى الله تعالى عنه :

ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، فاحتبسوه ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن « عثمان » قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« لا نبرح حتى نناجز القوم » ، ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام ألا إن روح القدس قد نزل على رسول ، ﷺ - فأمره بالبيعة ، فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ - وبايعوه .

قال « جابر » - كما فى صحيح مسلم وغيره - : بايعناه ﷺ - على ألا نفر ، ولم نبايعه على الموت ! .

وأخرج « البخارى » عن « سلمة بن الأكوع » قال : بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة ، قيل : على أىّ شىء تبايعونه يومئذ ؟ قال : على الموت(٣٢) !

وأخرج «مسلم» عن « معقل بن يسار » أنه كان آخذاً بأغصان الشجرة عن وجه رسول الله ﷺ وهو يبايع الناس . . »(٣٣) .

ويقول تعالى :

﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّونَ من حاد الله ورسوله ، ولو

---

(٣٢) لا تعارض بين الحديثين - كما يوهمه ظاهر لفظيهما - فإن المبايعة على الجهاد تتضمن المبايعة على الموت .

(٣٣) روح المعانى ٢٦ / ١٠٦ .

كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (٣٤) .

إن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه لا يوادون من حاد الله ورسوله ، وإنما يعادونهم ويحاربونهم !

ورضا الله تعالى إنما هو فى أن يقف الإنسان موقفاً صلباً فى وجه كل من يحاد الله ورسوله ، يقول تعالى للمؤمنين :

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ .

ويتحدث الله سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، فيقول :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٣٥) .

فالحرب دائرة على مر الزمن بين أنصار الله وأعدائه ، بين من ينتصرون للفضيلة . ومن يحاولون إشاعة الرذيلة ! بين عباد الرحمن ، وأتباع الشيطان !

وحزب الله الذى يدخل فى إطار هؤلاء الذين .

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

إنما هذه الطائفة التى يقول رسول الله ﷺ فيها :

(٣٤) المجادلة : ٢٢ .

(٣٥) المائدة : ٣٣ .

« ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهم ظاهرون على الحق بكل ما فى استطاعتهم من إمكانات ، ظاهرين على الحق بالسيف ، ظاهرين على الحق بالمنطق ! ورسول الله ﷺ وهو إمام المحبين وسيد الراضين ، كانت حياته كلها كفاحا فى سبيل الله تعالى :

جهاداً بالسيف ، وجهاداً بالقول ، لقد كانت جهاداً قولا ، وعملا ، وكان ﷺ الأسوة للراضين .

ما معنى الرضا إذن ؟

إن معنى الرضا ، أن يبذل الإنسان جهده ليصل إلى ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفى أثناء محاولاته للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أى وضع أحبها الله ، راض بها ، إن : « إليه المصير » .

وإن : ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ .

وإن : ﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ .

يجب أن يكون كل ذلك واقراً فى ذهنه ، مفعماً به شعوره ، مع إيمانه بأنه سبحانه حكيم ، رحمن ، رحيم ، إنه الرضا ! يقول صاحب اللمع :

« والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل » ويقول :

« والرضا آخر المقامات ، ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحقائق الأحوال[٣٦] .

---

(٣٦) اللمع : ٨٠ - ٨١ .

حول مصادر التصوف الإسلامى

١

يحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون فى التصوف الإسلامى ، رد الحياة الروحية الصوفية فى الإسلام إلى مصدر أجنبى بحت ، « هندى » ، أو « يونانى » : إلخ ، أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن ، أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال ، فيرى أن العامل الأول فى نشأة التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية – « هندية » ، أو « يونانية » أو « فارسية » ، أو « مسيحية – هى التى أثرت فيه ، وجعلته يتطور ؛ وهى التى أمدته من الآراء ، بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته .

وبرغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول فى صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة » ، فإن المستشرقين ؛ ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أو يعزوا التصوف إلى مصدر معين ؛ أو إلى مصادر مختلفة ، يشترك فيها المصدر الإسلامى ، أو لا يشترك .

والتصوف إذن على رأى بعضهم « مذهب دخيل فى الإسلام مأخوذ : إما من رهبانية الشام ، وهو رأى « ميركس » ، وإما من « أفلاطونية اليونان » الجديدة . وإما من « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهنود » ، وهو رأى « جونس » .

ويأخذ المستشرقون بعضهم فى مناقشة البعض ، وهدم بعضهم بعضاً ، بل إن الشخص الواحد منهم يغير رأيه ، فيختلف باختلاف فترات حياته ، فالمستشرق « ثولك » مثلا يذهب فى أول حياته إلى أن التصوف الإسلامى إنما هو مأخوذ عن أصل مجوسى .

ثم بعدل عن ذلك إلى الطريق المقابل ، ويرى أن « التصوف » وكل ما فيه من الأقوال المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول ﷺ ، وسيرته .

ويقول الأستاذ الدكتور « أبو العلا عفيفى » – بحق – ولما بدأت حركة طبع الكتب فى مصر ، والهند ، وغيرهما فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة ، تغير مجرى البحث العلمى لا فى التصوف وحده ، بل فى جميع فروع الدراسات الإسلامية .

وتغير إذن رأى « ثولك » وتغيرت بذلك أدلته ، وأسانيده ، وكما اعتبر فى فترة حياته الأولى أن أدلته وأسانيده فيما يتعلق بالمصدر المجوسى للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر فى فترة حياته الثانية أن أدلته وأسانيده فى المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه وجد فى فترة لم تكن الكتب الصوفية ميسورة كل اليسر ، فإن ما حدث « لثولك » هو نفسه ما حدث للمستشرق « نيكولسون » ، إنه يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام ، عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأهم هذه العوامل وأبرزها فى نظره ، هو « الأفلاطونية الحديثة » المتأخرة والتى كانت شائعة فى مصر ، والشام ، إلى عهد « ذى النون المصرى » ،

و« معروف الكرخي » .

وإذا أردنا تصوير رأى « نيكلسون » بقلمه فى هذه الفترة ، فإننا نراه يقول : ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التى أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل « هندى » ، أو « فارسى » ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر « اليونانى » ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليداً لاتحاد الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » ، والديانات المسيحية والمذهب الغنوصى » .

ثم يتحول « نيكلسون » عن هذا الرأى ، حينما يكتب مادة التصوف فى دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : « وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامى حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التى استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات ، والشعوب التى تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علميًّا ، دقيقاً ، بإرجاعها إلى أصل واحد : « كالفيدانتا الهندية » ، أو « الفلسفة الأفلاطونية » ، أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة لا الحقيقة كلها » .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول : « وقد بين « نيكلسون » : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين : نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقربهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويتابع الأستاذ « ماسينيون » ، شرح فكرة « نيكلسون » ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ، ونمت فى كنفه » .

وفكرة « نيكلسون » هذه ، هى تقريباً نفس فكرة الأستاذ « ماسينيون » فـ « ماسينيون » يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولا إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التى استمد منها التصوف نشأته وحياته .

والمصدر الثانى ، هو : الحديث ، والفقه وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير . فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التى وجدت فى البيئة الإسلامية ، فى عهودها الأولى .

٢

هذه الاختلافات الكثيرة ، التى استفاض فيها الكاتبون ، وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتى لاتزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهى — ولا نريد أن تنتهى — إن دلت على شىء . فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه وهذا الخطأ فى وضع المشكلة مفهوم السبب والعلة .

لقد وقف الكاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ، والثقافة الكسبية يتأتى فيها التأثر ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ، الذى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه ، إذن : هو

أثر للبيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التى تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذى يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى .

وإذا أردنا أن نتحدث فى تحديد ودقة ، فإنا نرى أن المشكلة التى نحن بصددها تتفرع إلى أمرين :

١ – الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢ – الشعور الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحتة ، وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية ، أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ؛ لابد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجوداً ، مهيئاً ، ويكفى لأن يسلك عمليًّا هذا الطريق : كلمة ، أو فكرة ، أو إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فيأخذ فعلا فى سيره نحو الله – تعالى – « إنى ذاهب إلى ربى » .

هذا العزم المصمم ، الذى يتمثل فى هذه الكلمة الكريمة : لابد له من الاستعداد الفطرى ، الذى لا يغنى عنه فلسفة « أفلاطونية » ، ولا « فيدانتا هندية » ، ولا « زرادشتية فارسية » .

وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً « للأفلاطونية الحديثة » ، أو لا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد « الهند » ، أو لا يكون ، فالمتخصص فى « الأفلاطونية الحديثة » لا يفيده تخصصه هذا – لا ولا قلامة ظفر – فى أن يكون صوفيًّا . وكذلك الأمر فى المتخصص فى عقائد « الهند » .

وقد قرأ الإمام « الغزالى » كتب الصوفية أنفسهم ، ويحدثنا بذلك فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » « لأبى طالب المكى » – رحمه الله – وكتب « الحارث المحاسبى » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، و « الشبلى »، و « أبى يزيد البسطامى » – قدس الله أرواحهم – وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

ولكن ذلك لم يجعل منه صوفيًّا ، ولم يكن الإمام « الغزالى » بهذه الكتب ، ولا بمطالعته لفلسفة « اليونان » ودراسته لها دراسة عميقة صوفيًّا ، ولكنه تبين أن أخص خواصهم – عن حد تعبيره – ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف – إذن ثقافة – كسبية ، تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ..

وهذا هو جوهر الشعور الصوفى .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه ، إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه » .

والذى لابسته تلك الحالة – على حد تعبير الإمام « الغزالى » – لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

المشاهد الصوفية إذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأتى التحدث عن

مصادرها الخارجية – أيًّا كانت هذه المصادر .

ووضع المسألة – مسألة مصادر التصوف – إذن موضع البحث ، والنظر ، والدراسة : إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم فى تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التى نريد أن ننتهى إليها – إذن – هى أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفى ، والشعور الصوفى ، والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد من مصدر النور ، والهداية .

نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة ، نشأ مع نشأة الإنسان .

والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ، لأن نشأة الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل .

ولكنه من البدهى : أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة الغيب ، وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل إلى الاتصال بذلك العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم .

ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم ، وبأن الله قد اجتباه ، إنها تعترف بصلته بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها : والنبوة أعلى درجة من التصوف إنها تتضمنه ، وتزيد عليه إن النبوة تتضمن الولاية ، ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . ﴾ .

والأديان – على وجه العموم – : لا تنتهج نهج التطوريين أو النشوئيين ، الذين يرون أن العقل الإنسانى : درجات مختلفة ، وأن تطلعه إلى المعرفة الإشراقية ، إنما نشأ متأخرًا : أى عندما نضج وتهذب :

والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات ، تتابعت رقيًا ، وإنما كل الأدلة تثبت أن العقل – باعتباره عقلا « لا باعتباره معرفة مكتسبة » : هو ، هو . فى بنى البشر ، باديهم ، ومتحضرهم .

ولو أخذنا طفلا من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ نشأته فى أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ، لنشأ نشأة أوربية بحتة .

وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلا من أرقى الأوساط الأوربية تحضراً ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .

العقل الإنسانى : هو ، هو ، منذ أن وجدت الإنسانية إلى الآن ، والذى اختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، وهذه المعارف المكتسبة هى وحدها التى تميز المتحضر عن البدائى ، والتى تميز رجل القرن العشرين بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .

ومما هو جدير بالذكر : أن التصوف – فى وجوده وتحققه – : غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كيماوية ، أو فلكية ، أو غير ذلك : إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .

والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ، ونفخ فيه من روحه .

هذه النفخة الإلهية ، أو هذا السر الإلهى فى الإنسان ، أو هذه الروح التى بين جنبيه ، أو هذا القلب الذى منحه الله إياه : إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد فى طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التى تؤدى إلى الاتصال بالملإ الأعلى ، فإنه ينتهى – بتوفيق الله – إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعنى : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة . . إنها الأمل العذب الذى يراود الكثير من النفوس التى تريد أن تتنزه عن المادة وأن تسمو على الحس ، وأن تصبح ربانية .

وهذا النمط من الناس موجود فى كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعى أنه

من الندرة بمكان ، « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه ، إلا الواحد بعد الواحد » ، على حد تعبير « ابن سينا » .

ومن المعقول : أن هذا النمط وجد مع وجود الإنسانية ، مادام الطموح ، وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، مادام كل ذلك فطرة فى بعض الطبائع .

وجد التصوف إذن ، منذ أن وجد الإنسان .

وفيما قبل الحضارة اليونانية ، كانت المسائل – فيما يتعلق بالمعرفة – تسير سيراً طبيعيًّا ، فقد كان هناك ميدان للحس ، يجول فيه ، كيفما شاء ، وهناك ميدان للعقل ، يبحث فيه ، كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف فى الحكمة الهندية مثلا ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما رواء الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط فى تلك الحضارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملا ، لا لبس فيه ولا غموض . كانت محدودة ، فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة ، فيما يتعلق بالموضوعات .

وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا سبيله . بل حدث فى بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين طبقة معينة ، هى الطبقة التى يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن أسلافها .

وطبقة « البراهمة » عن الهنود طبقة محددة ، وما كان كل شخص يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولاتزال هذه الفكرة للآن – فكرة تحديد ميادين المعرفة ، وتحديد وسائلها موجودة فى الهنود المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينا نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول - نوعاً ما - بين ميادين المعرفة . وبدأت بالتالى ، تضطرب الأمور ، فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها -- فى بعض صورها -- كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت ، أو مصرية .

فهذا مثلا ، « فيثاغورث » ومدرسته : كانوا يسيرون فى المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد بجوار « فيثاغورث » من انتهجوا النهج العقلى ، فى معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان « أرسطو » فذهب بهذا الخلط أقصى مداه ، واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لايزال العالم يعانى الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل فى مسائل ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليونانى ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفيًّا أمره - فى العصر اليونانى ، وفيما تلاه من العصور - على كثير من ذوى البصائر النافذة ، الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأ وعصمة ، والذين اتخذوها دثاراً وشعارًا ، والذين عملوا بها ؛ وتشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة فيهم . . فقادتهم إلى أن يكونوا ربانيين : لقد قادتهم إلى الأمل المنشود : شهود ما وراء الطبيعة ، أو شهود التوحيد ، فانضووا تحت لواء الآية الكريمة :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم . . ﴾ .

إنهم أولياء الله ، إنهم « الصوفية » .

لمحة عامة عن التصوف

هذه اللمحة كتبها الحكيم الصوفى الفرنسى النشأة رينيه جينو Rene Guenon الذى أسلم وسمَّى نفسه عبد الواحد يحيى وقد كتبنا عنه فيما مضى ما يلى :

أما الذى كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثير من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقتدوا به : واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة تعبد الله على يقين فى معاقل الكاثوليكية فى فرنسا ، وفى سويسرا . . فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفى : « رينيه » الذى يدوى اسمه فى أوربا قاطبة وفى أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية فى أوربا ، أو فى أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطا منطقيا فى آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد – بعد دراسة عميقة – سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف ولاالتبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة :

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

لم يجد سوى القرآن نصًّا مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف الهائل ، الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل

شرق يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبيناً أصالته فى الحضارة ، وسموه فى التفكير ، وإنسانيته التى لا تقاس بها مادية الغرب ، وفساده ، وامتصاصه للدماء وعدوانه الذى لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين ، وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ، ومع أسمى المبادئ الإنسانية . .

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعرف به ، ننشره فيما يلى :

« رينيه جينو » من الشخصيات التى أخذت مكانها فى التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام « الغزالى » وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار « أفلوطين » ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، فى بيئتنا الحالية ، لايقدر التقدير الذى يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان حسن حظ : « رينيه جينو » أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته . أما فى أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت فى « رينيه جينو » خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبيًّا له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابى . الذى لا يقل فى أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة « رينيه جينو » ، فألفوا جمعيات فى جميع العواصم الكبرى فى العالم ، وعلى الخصوص ، فى سويسرا » ، وفى « فرنسا » ، والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو « رينيه جينو » فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ،

شعاراً وديدنا ، ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابى أيضاً ، أن كتبه برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت فى جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاى لاما » . ولم يكن يوجد فى الغرب شخص متخصص فى تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بآراء . « رينيه جينو » .

كل هذا التقدير كان فى حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلا ، الذى كتب عنه ، فى استفاضة والصحف الإفرنجية أيضاً ، كمجلة « إيجيبت نوفل » . التى أخذت تكتب عنه عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام فى ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : « فرنسا آسيا » وهى مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحه بتقدير شاعر فرنسا الأكبر . « أندريه جيد » لـ (رينيه جينو) وقوله ، فى صراحة لالبس فيها : إن آراء (رينيه جينو) لا تنقض .

وخصصت مجلة : (ايتودترا ديسيونيل) ، وهى المجلة التى تعتبر فى الغرب كله : لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفى الشهير ، (بول سيران) كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، فى المكان اللائق به ، بجوار الإمام الغزالى أو الحكيم أفلوطين .

نشأ (رينيه جينو) فى فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله حينما نضج تفكيره ، ماعليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث فى جد عن الحقيقة ، ولكن أين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أم فى الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه : الإمام « المحاسبى » والإمام « الغزالى » ، والإمام « محيى الدين ابن عربى » وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين والذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى ، وتأتى فترة الشك ، والحيرة ، والألم الممض ، ثم يتأتى عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة لـ (رينيه جينو) : أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وأصبح جنديًّا من جنوده ، يدافع عنه ، ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك : ماكتبه فى كتابه : (رمزية الصليب) تفنيدا للفرية التى تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ماكتبه فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة : (كاييه دى سود) ، فى عددها الخاص بالإسلام والغرب ، دفاعاً عن الروحانية الإسلامية ، لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف المسيحى فى أسمى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى .

كتب الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، مبيناً سمو التصوف الإسلامى وروعته ، وقارن بينه وبين مايسمونه بالتصوف المسيحى ، أى « الميستيسيم » ، وانتهى بأن هذا « الميستسيسيم » لايمكنه أن يبلغ ولامن بعد ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ « عبد الواحد يحيى » لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد

فى جميع كتبه ، وفى مواضع لايأتى عليها الحصر ، بالشرق ، ثم خصص كتاباً ضخماً بعنوان : (الشرق والغرب) تزيل قراءته من نفس كل شرقى مركب النقص الذى غرسه الاستعمار فى نفوس الشرقيين ، فى هذه السنوات الأخيرة .

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . وأتى الشيخ « عبد الواحد » : فقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحى والإلهام .

إن كل شرقى يفخر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى ، أو على الطريقة الإنشائية ، وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ، وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد . اعترافاً منهم بالجميل ، والله الموفق .

* * *

وفيما يلى ماكتبه الشيخ عبد الواحد ، وقد ترجمناه عن الفرنسية .

بين الظاهر والباطن :

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموروثة ، هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما « الظاهر » و « الباطن » أعنى « الشريعة » ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولايصل إليها إلا المصطفون الأخيار ، وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن – فضلا عن الناحية الاعتقادية – الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزءان عن الدين الإسلامى :

إنها أولا وقبل كل شيء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة[٣٧] فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامى العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة – وإن لم يشعر بذلك المؤمنون – المركز الأساسي : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن (الباطن) لايعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبيل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهى – كلها – إلى المركز .

إنها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية .

ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الإنّية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها « صفات العبد » التي ليست إلا سجناً : « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

---

(٣٧) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن نعبده ، والحقيقة أن نشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : قوله إياك نعبد حفظ للشريعة ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

« عن الرسالة القشيرية »

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصًّا : لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ أنه لايمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلا محضا ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفى الحقيقى وبين ربه ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : انه متصوف : وهو عنوان يطلق على « السالك » فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى ، لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة : صوفى [٣٨] ، فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها فى الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها ، ينبغى لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإن لمن الروائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : (الحكيم الإلهى) ، فيكون الصوفى الحقيقى هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه (العارف بالله) إذ أن الله

---

(٣٨) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفى وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة : المتصوفة . وليس يشهد لهذا . الاسم من حيث العربية قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب فأما قول من قال : إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف . كما يقال تقمص إذا لبس القميص : فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى . ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصف ، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم ، من حيث المحاضرة من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق .

« عن الرسالة القشيرية »

لا يعرف إلا به . وتلك هى الدرجة العظمى (الكلية) فيا يتعلق بمعرفة الحقيقة .

من كل ماسبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالاسلام ، وإنما هى ، بالعكس تكون جزءاً جوهريا من الدين[39] . إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : « يونانى » أو « هندى » أو « فارسى » : وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطًا وثيقًا . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية ، وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى ، فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة ، فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيا تلبسه من صور .

ويجب ألا نعطى عناية كبيرة – حينا نتحدث عن أصل التصوف – لتلك المناقشات ، التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف ، خاصة بتحديد الفترة الزمنية

---

(٣٩) قال الأستاذ « ماسينيون » فى دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية مادة (تصوف) : أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة الحالى ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف دخيل فى الإسلام ، مأخوذ إما من رهبانية الشام ، وهو رأى (ماركس) وإمامن (أفلاطونية اليونان » الجديدة ، وإمامن « زرادشتية الفرس » ، وإما من « فيدا الهنود » ، وهو رأى (جونس) وقد بين « نيكولسون » . أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشات فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وماحل بالأفراد من نوازل ، على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لايخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ، ونمت فى كنفه .

التي وجدت فيها لفظة صوفى .

فإن الشىء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته[٤٠] . وعلى كل حال ففيصل الحق فى مسألة أصل التصوف هو ما يأتى :

إن السنة ترشد فى صراحة لالبس فيها – إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله وسلامه عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على (سلسلة) تصل دائماً إلى الرسول ، وإذا كانت

---

(٤٠) اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (ابن خلدون) .

ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف فى الملة الإسلامية من قبل ذلك ، بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلى ، عرفته العرب قبل ظهور الإسلام . قال « أبو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى » المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) فى كتاب « اللمع » فى التصوف : وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ، لأنه فى وقت « الحسن البصرى » كان يعرف هذا الاسم ، وكان « الحسن » قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وروى عنهم ، وقد روى عنه أنه قال : (رأيت صوفيًّا فى الطواف ، فأعطيته شيئاً فلم يأخذه . وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى مامعى) .

وروى عن « سفيان الثورى » رحمه الله أنه قال : لولا « أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء . وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع أخبار مكة ، عن محمد بن إسحاق بن يسار » وعن غيره يذكر فيه حديثاً : أن قبل الإسلام قد خلت مكة فى وقت من الأوقات ، حتى كان لايطوف بالبيت أحد ، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت ، وينصرف ، فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم . وكان ينسب إلى أهل الفضل ، والصلاح والله أعلم .

ويعقب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فيقول :

فاستعمال لفظ صوفى ومتصوف لم ينتشر فى الإسلام ، إلا فى القرن الثانى ، ومابعده سواء أكان هذا التعبير عن هذا « بالصوفى » حدث فى أثناء المائة الثانية ، كما هو رأى « ابن خلدون » المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦ م) فى مقدمته أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب « اللمع » الذى يحاول أن يبرئ الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولاالتابعون .

(عن دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية)

بعض الطرق فيما بعد . (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل فى الطريق وإن كان التشابه به هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل فى المعارف ، وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع ، والأوزان فى مختلف فروعه) فإن أهمية ذلك لاتعدو أن تكون أهمية ثانوية ، لاتمس الجوهر من قرب أو من بعد والحق أن التصوف عربى إسلامى كما أن القرآن – الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة عربى إسلامى . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تنفجر عنه ينابيع (الحقائق) التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولا لغويًّا ، ومنطقيًّا ، وكلاميًّا ، ولكن تفسيره صوفيًّا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم :

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى – خلافاً للفكرة الشائعة حاليًّا عند الغربيين – لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحى : أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه : « الميستيسيسم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهى .

١ – يبدو واضحاً أن الميستيسيم شىء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندون إليه فى ادعاء وجود ما يماثل الميستيسيسم فى الأوساط التى لا تعتنق المسيحية .

ولاشك فى أن هذا الفهم الخاطئ يرتكز على شىء من التشابه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يسّوغ قط دعوى

التشابه ، وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولاتدع مجالا الميستيسيسم خاص بالمسيحية إذن .

٢ – ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ – ثم إن المسيحى الذى اتخذ الميستيسيسم سبيلا فى الحياة ينهج فى سلوكه منهجاً سلبيًّا . إنه يقتصر على تلقى ما يأتيه دون أن يكون له أثر شخصى ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها ، هادفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل هذا لم يكن فى المسيحية طرق صوفية . ولذلك لايتخذ المسيحى (شيخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد ، الذى بواسطته يصل إليه التأثير الروحى ، الذى لابد منه فى التصوف .

٤ – والاختلاف فى الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة وهدف الميستيسيسم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هى أن التصوف والميستيسيسم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم – ولو تقريبيا – كلمة ميستيسيسم : ذلك أن الفكرة التى تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنّة الإسلامية .

علوم التصوف

إن التصوف فى جوهره معرفة فى محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا ، فإن بعض العلوم يتصل به اتصالا وثيقاً ، بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا مما يميزه أيضاً عن الميستيسيسم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيماً » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق . وكذلك الأمر فى الكيمياء

القديمة : إنها ليست استخراج الذهب الحقيق ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لاصلة لها بالمادة ، وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط ، أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لايعرفون عن المعنى الحقيق لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً أخرى ، لايعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

من شروط التصوف :

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو : التأثير الروحى ، أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ »[41] ، ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا بركات ، تنتقل من شيخ إلى مريد ، يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ؟

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية ، تتعلق بطبيعة التصوف وهى : أن

---

(٤١) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ ، لا يفلح أبداً هذا « أبو يزيد » يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ « أبا على الدقاق » يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق . لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته ، نفسا فنفسا . فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً .

« الرسالة القشيرية ص ١٩٩ »

ويشترط الإمام « الرازى » فى الشيخ أن يكون مخلصاً صادقا ، قد انتهج الصراط المستقيم ، وأن يكون سالكا ، أما السالك ، فلأن الوصول تارة بالجذبة على ما قال عليه السلام « جذبة من جذبات الحق ، توازى عمل الثقلين » وأخرى بالسلوك . والأول لا يصح أن يقتدى به ، لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنيًّا ، فإنه وإن كان ذا مال ، لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا ينتفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب ، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المريد ؛ لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ، ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل ، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل .

(شرح الإشارات ١١٢)

التصوف ليس عملا علميًّا ، ولابحثاً نظريا ، إنه لايتعلم بواسطة الكتب[42] على الطريقة المدرسية ، بل إن ماكتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقوٍّ للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته ، متصوفاً ، على أن ماكتبه كبار الصوفية لايفهمه إلا من كان أهلا لفهمه ، ولأجل أن يسير الإنسان فى طريق التصوف لابد له من :

---

(٤٢) من كلام الإمام « الغزالى » فى المنقذ من الضلال :

« ثم إنى فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل » .

وكان حاصل عملهم قطعهم عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبى طالب المكى -- رحمه الله -- وكتب « الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، « والشبلى » و « أبى يزيد البسطامى » قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه : مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم ، بالتعليم والسماع .

فظهر لى أن أخص خواصهم ، مالا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة . وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على الفكر ، وبين أن يكون سكران .

بل السكران لايعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران ، ومامعه من علمه شيء .

والصاحى يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حدا للصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد . وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ؛ لا أصحاب الأقوال : وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ؛ بل بالذوق والسلوك .

(المنقذ من الضلال)

١ – استعداد فطرى خاص (٤٣) ، لايغنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ – الانتسب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن « البركة » التى تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ – ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه : فى الجهاد الأكبر : التأمل الروحى ، وفى الذكر : أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى ، فيصل موفقا من درجة إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح ربانيا . ذلك هو الصوفى الحقيقى .

مقامات الوصول :

وحينما يقطع الإنسان الطريق ، يصل إلى الولاية .

والولى : إما أن يمكث ولـيًّا فقط ، فتكون معرفته خاصة ، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الأخرين ، فيكون نبيًّا ، أو يكون رسولا .

والرسول نبى ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية « الرحمن » فى جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى « القرب » من الله بينما النبى متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، ولكن

---

(٤٣) يرى الإمام « الرازى » أنه لابد – لتكون الرياضة نافعة – أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا الحديث . ملائمة له : إذ لو لم يكن كذلك ، ما نجحت فيه الرياضة أصلا : لأن تأثير الرياضة ليس إلا فى إزالة العوائق ، ورفع الحجب والأستار . وزوال العائق ، لايكفى فى حصول المطلوب ، بل لابد معه من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تفد الرياضة سعادة أصلا ، لكنها تفيد السلامة) .
(شرح الإشارات ١١٢)

ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية فهى متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإن حالة الولى « ناقصة » بالنسبة لحالة النبى ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم . وهذا العموم يصل إلى درجات ازدهاره فى الرسالة : إذ هى عالمية ، والرسول لا غيره – هو حقيقة « الإنسان العالمى » .

وللرسول – كما للنبى – اتجاهان :

١ – اتجاه داخلى : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ – اتجاه خارجى : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحددة ، ودرجة النبى المحدودة ، أسمى من درجة الولى الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

الفصل الثاني

التصوف والشريعة

- التصوف والدين
- التصوف والتحلل من الشريعة .
- وحدة الوجود .
- السجود للأوامر الإلهية كمظهر للتدين السليم والتصوف الصحيح .

التصوف والدين الإسلامى

ألِلتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لايوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائماً روحية : رضاء الملأ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفًا به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال .

وهى إذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضحناها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله ، لا يتأتى إلا عن طريق الوحى المعصوم ، فلابد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً . وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط مالم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية اقتداء تامًا برسول الله ﷺ . لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

ويمكننا أن نقول فى صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف إلا فى المحيط الإسلامى ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله التحريف إلا فى النصوص الإسلامية ، إن القرآن كلام الله وهو الآن كما كان أيام رسول الله

ﷺ ، وقد عرف ذلك بعض الغربيين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام ، مستمسكين بوحيه سائرين على نسق رسوله ، مستجيبين إلى أوامره مجتنبين نواهيه ، وساروا فى الطريق فوصلو إلى روضات القرب من الله سبحانه ، وكل من لم ينطلق من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق فإنه لايصل إلى شيء من درجات الصوفية . إن الصوفية لا تتأتى إلا بالاقتداء ، والقدوة المعروف الآن سيرتها فى صدق ويقين هو رسول الإسلام محمد ﷺ ، إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله فى صدق .

لقد تناقش الناس كثيراً فى كون محمد ﷺ هو القدوة ، لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمداً ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع : أن التصوف لايعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحى : ليكون عارفاً بالله .

وليس من عناصر فكرة الاتحاد أو الوحدة أو الحلول : بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنها كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم . وماتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء.

هذا هو ، المحاسبى ، الذى لايشك فى أنه : من زعماء الصوفية ، ليست عنده فكرة الاتحاد ، أو الحلول أو ماشاكل ذلك من حالات السكر التى يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله ، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم ، وتأخذ بكل مافيهم من تفكير ، فيرون ، فى النهاية ، أنه :

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

و « إن الله معنا » .

وإذا كان – الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود – ليس من عناصر التصوف وأن عنصره الأساسى – كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبى ، أو الغزالى ، أو رابعة العدوية ، أو كثير غيرهم – : ليس إلا الجهاد لرضاء الله وتزكية النفس حتى تعرف الله به . . إذا كان الأمر كذلك فإننا نعتقد – ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين – أن محمداً ﷺ ، كان أول قدوة لصوفية الإسلام .

* * *

بقى الحديث عن القرآن ، وقد كثر الكلام فيه أيضاً ومحط النزاع هو أن القرآن ، كتاب دنيا وآخرة ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول ، فى صراحة وإيجاز : ﴿ولاتنس نصيبك من الدنيا﴾ .

أما التصوف ، فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا قليل ولا كثير .

والحقيقة : أن كلا من هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن ليس كتاب دين ودنيا على الإطلاق : إنه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ، والصوفى : ليس رجل آخرة فقط ، لأنه يصارع فى الحياة صاعداً بها نحو الكمال .

أجل : إن القرآن يدعو إلى ألا ننسى نصيبنا من الدنيا وإلى أن نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن تشريعاً لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة – فى نظر القرآن – خير

وأبق ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة وتفاخر ، وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن : هم ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ إلى آخر مافى القرآن من آيات ، ترشد إلى أن الحياة فى هذا العالم هى -- حقًّا هى الحياة « الدنيا » وأن الآخرة خير وأبقى .

والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة وهو جهاد فى سبيل الله وقد رفع الصوفية رايته خفاقة فى كل العصور .

أما أن الصوفى : رجل آخرة فقط فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ، أو على الأقل . عدم التحديد ، فهذا الصوفى يتزوج ، ويدعو هو الآخر ، إلى أن اليد العليا خير من السفلى ، وأن المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب : خير من أن يتكفف الإنسان الناس : أعطوه ، أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن :

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ .

فمعنى إيثاره للآخرة إذن ، إنما : هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك فى أن القرآن الكريم ، والرسول ﷺ ، يطويان جميع المسائل ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنهما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصبغة الله : يريدان أن يكون كل عمل إنما يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون الأعمال بهذا عبادة ، وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهيًّا يتخلق بأخلاق الله .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

١

فى كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم فى الميدان الدينى ، وفى الميدان السياسى ، وفى الميدان العلمى ، ونجدهم كذلك فى ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق .

وكما لا يضر الدين ، ولايضر العلم ، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون : فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، فكذلك الأمر فى الجانب الصوفى .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثا عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التى لم تتعمق فى الجانب الدينى عموماً ، ولا فى الجانب الصوفى خصوصاً .

هذه البدعة ترى : أن الشخص الذى وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولازكاة ولاحج . . . ولاغير ذلك مما يلتزمه المسلمون .

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول مانشأت – فى العصر الحاضر – بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لاتجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التى وصلتهم ، فسترى عجباً عجاباً ؛

ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التى يستحضرونها فتبس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته . ومن مشرقه إلى مغربه ! !

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح فى وسطهم ، يتحدثون عنها مصبحين وممسين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذى لايدينون بغيره ، ولا يتلقون الوحى عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، فى فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، ﷺ ، ثم تخلص من البشرية جملة ، فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التى يستحضرها تؤيده فى كل ما يزعم ولاترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، فى ذلك شذوذاً ولاتناقضاً ، وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفى أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ .

ولعلك تتساءل : هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف فى ذلك حاسم قاطع :

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تعامل مع الجن والشياطين ! ! ويتذكرون فى هذه المناسبات قول الله تعالى :

﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف ، والضلال والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه ، وليس من همنا ، أن نبين نشأتها التاريخية فى العرب بين الأوساط اليهودية التى روجت لها ، وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة : لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن : إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط التكاليف الشرعية » ، وهى مسألة لم يبتدعها من يزعمون التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلا ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لاشك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة وإذا رجعنا إلى زعماء

التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم اثنان نجدهم – سواء فى ذلك القدماء منهم والمحدثون – نجدهم ينكرون الفكرة إنكاراً تامًّا ، ويرونها زيفا وضلالا وانسلاخاً عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى هذا الموضوع ، ثم نفصل ، نوعاً ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم علم من زعماء الصوفية فى العصر الحديث .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية – وكان رجلا مشهوراً بالزهد – فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟ ! »

ومن كلام أبى يزيد .

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التسترى معبراً عن أصول التصوف . « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد – سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى .

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » .

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمه ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ماوصلنا إلى الإمام الغزالى ، فإننا نجده يقول ، فى شيء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له :

وذلك أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً ، وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولايصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهل الفرائض ؟ !

فان قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولايضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من

التساهل فى هذه الأمور؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وأن المحققين قالوا :

« ولو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان . . » وهو الحق .

فإذا ماانتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، فإننا نجده يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ولاالمشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة » .

والصوفية يتبعون فى كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول ﷺ ، وهم يعلمون – لاشك – البديهات التاريخية من أن الرسول ﷺ ، كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء ، وخير ما نختمه به إنما هو الحديث النبوى الكريم .

« وسئل النبى ﷺ ، عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٢

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى »[١]

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون فى ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى . وهذا فى الواقع استعداد نفسى لايوجد إلا فى الغرب الحديث .

ولاشك فى أن أسباب ذلك متعددة ولايعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يميلون إلى إنكار كل مايتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ؛ ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لايبرر إنكاره ؛ ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملى ذلك أن الأكثر ، وهو : « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو : « الشريعة » ،

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى ، إلى الشريعة ، من حيث

---

(١) وهو فى هذه الكلمات يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لاعن وجهة نظرية فحسب .

عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له . . . هذه النظرة تتضمن ، ولو نظريًّا ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كليًّا قبل يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله . وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعي أن يقوم الجو الدنيوي الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوي ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفي الواقع لا يمكن أن يوجدها هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لاتزال مسيطرة في بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما ، خارجي ، والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي ، وهي مع ذلك لا ترتكز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن

البديهى أن هذه الجماعات – ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة – ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر فى الهواء إنه لا يشيده على أساس ، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هى بناء فى الهواء ، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً ، لايمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف فى طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها ، دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى ، ويحياها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولايلتزمها ، لايمكن أن يحيا إلا حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى ، كما هو

شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لايمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لايقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لايقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياةُ : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التى يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال فى نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً فى نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه دينى وعند الآخر بأنه دنيوى . فإن كان القصد « الله » فالعمل دينى وإن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه[٢] » .

ومن البديهى أن الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك

(٢) رواه البخارى فى صحيحه .

مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وهانحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ؛ ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالى لايوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد -- ونحن على يقين من الأمر -- لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تامًّا وبالله التوفيق .

التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية

٣

فتوى للإمام الغزالى [٣]

كتب له بعض الزائغين :

ما قوله ، متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه ، فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ويجد فى الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكاليف الشرعية ، والرياضات الدينية : هو الفطام عما سوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » ﷺ : « اخل قلبك : أريد أن أنزل فيه » .

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انقطع عن حفظ

---

(٣) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ فى كتابه « طبقات الشافعية » وهى موجودة فى كتاب « سيرة الغزالى » للأستاذ عبد الكريم العثمانى وفى المقدمة التى كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب (فيصل التفرقة) !

الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا ينزل يده من التكليف الظاهر ، ولايقصر فى أحكام الشريعة ، ولكن الاعتقاد الذى كان له فى الظواهر والتكاليف ، تناقص وتقاصر عما كان فى الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة ، لالأجل الخلق ، وحفظ نظرهم ومراقبة الله ، بل صارت إلفا له ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعى والدعوة ، حصول المعرفة والقربة وإذا حصل هذا استغنى عن الداعى ، والواسطة » .

كيف معالجتها ؟

« فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعى أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعى قد بين ما احتيج إلى بيانه ، وشرح معالم الطريق وذهب . فلو احتاج السالك إلى مراجعته فى زوائد وإيرادات ، لم تمكن المراجعة فى هذه الحالة .

فيقول :

ماهو طبيب علتى فى هذه الحالة ؛ لأنه غاب عن إمكان المراجعة ، فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :

الجواب : وبالله التوفيق : ينبغى أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله والتجرد له ، فهو مصيب فى ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطئٌ فى ظنه أنه كل المقصود ، ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى فى الفرائض التى استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام ، تقتصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ، قصراً على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة ، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب فى البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك فتنبه حيث لم ينفعه التنبه إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ؛ وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان .

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى :

﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾

وقال :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ .

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ماهو منتف عن علمه ، فهو منتف فى نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى : كذلك القصر ، وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة : المكتوبات والمشروعات .

بقوله سبحانه :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ .

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى استخراج الحيات ، بل فى استسخار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر فى استمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته ، وإنما يدرك ذلك « بقوة النبوة » إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة فى تسكين التنين المستكن فى قلب الآدمى الذى يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعدد أخلاق الآدمى ، يلدغه وينهشه فى القبر ، متمكنًا من جوهر الروح وذاته أشد إيلامًا من لدغ مكن من القالب أولا ثم يسرى أثره إلى الروح .

وإليه الإشارة بقوله ﷺ .

« يسلط الله على الكافر فى قبره تنينا ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ... » الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين فى خلق الآدمى ، ولايقمعه إلا الفرائض المكتوبة فهى المنجية من المهلكات ، وهى أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

﴿ومايعلم جنود ربك إلا هو﴾

* * *

فإذن فى التكليف غرضان :

أدرك (هذا المغرور) أحدهما ، وغفل عن الآخر .

وقد وقع لـ « أبى حنيفة » مثل هذا الظن فى الفقهيات ، فقال :

« أوجب الله فى أربعين شاة ، شاة . وقصد به إزالة الفقر ، والشاة آلة فى الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود » .

فقال « الشافعى » رضى الله عنه :

« صدقت فى قولك : إن هذا مقصود ، وركب متن الخطر فى حكمك بأنه لا مقصود سواه ، فيم تأمره : إذ يقال له يوم القيامة : كان لنا سر فى إشراك

الغير الفقير ، مع نفسه فى جنس ماله ؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار فى الحج يؤدى بدلها خمس لآل ، أو خمس أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحض التقييد فى الحج ، وأن يتمحض المعنى المعقول معاملات الخلق فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً فى الزكاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .

وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ، فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم » .

فقال « الشافعى » .

وم علمت : أنه لا فرق فى صفات الله بين « العظمة » و « الكبرياء مع أنه تعالى يقول :

« العظمة » إزارى و« الكبرياء » ردائى ، و « الرداء » أشرف من « الإزار » وهلا استنبط مقصود « الخضوع » من « الركوع » وأقمت مقامه السجود . . . ؟ لأنه أبلغ منه فى الاستكانة .

فإن قلت : لعل لله سرا فى الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر فى كلمة « السلام » « فلا يقوم مقامه « الحديث » وكل خطاب للآدمى ، وأن يكون له سر فى القرآن المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون له سر فى الفاتحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن ، وتأثر القلب ، لا حروفه وأصواته فإنها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر القلب ، فليكف عن

القراءة للجلوس مع الله تعالى ، على هيئة الإجلال والذكر ، والسؤال بصورة الصلاة .

وجميع ما ذكر « أبو حنيفة » بطلان مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة ، فمقطوع ببطلانها بالإجماع ، وهذا ما انجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدئ فى المعرفة يجرد عن الصور ، ويطرح الصور فيطفئ نور معرفته نور ورعه ، فيثور عليه التنين فى قبره فيتعجب منه ، ويبدو له من الله مالم يكن يحتسب ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ماهذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة ، وإليه الإشارة بما يروى :

« إن الميت يوضع فى قبره : فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه ، فيدفعها القرآن فتأتيه من جهة رجليه فيدفعها الحج . . » الحديث .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغت أمن هذا التنين وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور فى أمنك :

﴿ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

فيم تأمن أن يكون التنين مستكنًا فى صميم الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد ، أو استكنان النار فى الرماد ، وإن مات فيعود حيًّا فإن منبته ومنبعه هذا القلب الذى هو مظنة الشهوات والصفات البشرية ، وقلع الحشيش لا يؤمن عوده مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت الأرض معرضة لانصباب الماء إليها من منابعها .

فكذلك القلب مادام مصبا لواردات المحسات والشهوات ، لم يؤمن فيه عود النبات بعد الانقطاع والانبتات .

* * *

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال « إبليس ، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد : اغتراراً بما عنده من العلم ، وغفلة عن أسرار الله فى الاستبعاد ، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته ، وفطنته وتمسكه بمعقوله ، فى كونه خيراً من آدم عليه السلام .

فننبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة .

الثانى : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركونه نهياً واحداً ليعلم أن فى ركوب النهى إبطال (اعتقاد) الكمال لخالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله ﷺ ، فإن هذا المغرور لعله يقول : إنه لم تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود ، ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه ، بل يزيد فى فرائضه وأوجب عليه التهجد ، ولم يوجب على غيره ، وقيل له .

﴿ يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ﴾

وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جوهرها نفاسة وشرفاً ينبغى أن يزداد حصنها إحكاماً وعلوًا ، فلذلك قيل فى تعليل إيجاب التهجد :

﴿ إنا سنلق عليك قولا ثقيلا.إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾
فتبين له أن هذه الصلوات هى حصن الكمال فلا يبقى إلا به .

ولعل المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الاقتداء ، لا لحاجته إليها فى حفظ الكمال .

فيقال له :

فلم زاد عليه فى التهجد وجوباً ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال لقبل منه ، كما قبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ماشاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء ، كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار والتسهد ليلا وهو ينام .

ويقول : إنى بلغت درجة استغنيت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

ولعل هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبى والصديق ، وكل من واظب على الفرائض وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً ﴾ .

مسألة :

أما ماذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التى نالها ، والكمال الذى بلغه فهوكذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسمان .

أمر ونهى :

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقة ، والقتل ، والضرب ، والنميمة والكذب ، والقذف .

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال ؟ وكيف يحجب عن القربة ؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات ؟

وأما المأمورات : فالزكاة والصوم والصلاة . .

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما الذى يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، فى شهر واحد ، هو رمضان .

وأما الصلاة فتقسم إلى :

أفعال وأذكار :

وأفعالها : قيام وركوع وسجود .

ولاشك فى أنه لايخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل ، فيكون إما قائماً ، أو مضطجعاً .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ، ماهو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه ﷺ .

﴿ واسجد واقترب ﴾

ومن عشق ملكا ذا جمال ، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ، استكانة له ، وجد فى قلبه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال ﷺ :

« وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

فاستدامة حال القربة واستزادتها : فى السجود ، أيسر منه فى الاضطجاع والقعود :

ومهما ألقى فى قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجاً من حال إبليس ، حيث ألقى فى نفسه أن السجود بحكم الأمر ، سبب زوال قربته ، وكماله .

فكل ولى سقط من درجة القربة ، إلى درجة اللعنة ، فسببه ترك السجود ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولى أسعد بالترقى إلى درجات القرب قيل له :

﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ومقتداه وإمامه الرسول ﷺ .

ولاينبغى أن يتوهم الولى الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ، مادام فى هذه الحياة ، بل لا ينجو عنه الأنبياء .

غير أنهم محفوظون كما قال تعالى :

﴿ وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ﴾

وأما أركان الصلاة فتكبير ، وفاتحة وركوع وسجود ، وتشهد ، لا فريضة إلا هذا ، فما وجه الضرر فى قوله :

« الله أكبر » وفى « الحمد لله » والالتجاء إليه ، واستعانته ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .

وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله مثلا ، وفى كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه الأنفاس المعدودة إلى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر التنين الذى لا يعتد بشر سواه ويتخلص من خطر الخطأ فى هذا الاعتقاد .

ولاشك فى أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به .

وإن قال : إن عزوف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ، هو الذى يشغلنى عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ، لأن الهدى لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً مرة يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإلحاحه ، بل يجد من نفسه فى ذلك هزة ونشاطاً .

فكيف لا تكون قرة عين العبد فى مناجاة محبوبه ، وخدمته التى رسمها وارتضاها له .

مسألة :

معنى ارتفاع التكليف عن الولى .

بل معنى ارتفاع عن الولى أن العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه[٤] .

وهو كالصبى يكلف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهراً ، فإذا اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألذ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال : لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به ، فأى معنى لتكليفه ؟

---

(٤) وفى ذلك يقول ﷺ : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) ويقول : (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) .

فإذن تكليف الولى محال والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى ، لا بمعنى أنه لا يصوم ؛ ولا يصلى ، ويشرب ، ويزنى .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقبيل قدميه والتواضع له ، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته . فكذلك غذاء روح الولى ، فى ملازمة ذكره ، وامتثال أمره والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه إشراك القالب مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك فى الالتذاذ قلبه ، وقالبه كما قيل :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى : هى الخمر

أى ليدرك سمعى لذة اسمه ، كما أدرك ذوقى طعمه .

بل تنتهى لذة الولى من القيام لربه قانتًا مناجياً ، إلى أن لا يدرك الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

مسألة :

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه لو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، فى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوَّز أن يكون لله تعالى سر فيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت

خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالإلهية ، والنبوة ، تخيل باطل ؛ فإنه إذا لم يجوز فى كمال قدرة الله تعالى سرًّا بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص فى الأعمال والأذكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة مقصورة على قدرة عقله وهو كفر صريح .

وإن جوز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكلف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، ﷺ ، بلغ قوله تعالى :

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا ﴾ .

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك فى إيجاب الرسول ، فليتأمل القرآن والأخبار .

وإن شك فى قدرة الله تعالى على نفسه فى الأعمال والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، وكالحراسة عليه من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى فى عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه ؟

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقومه على خزف ، ولم يصبه ألم بشرط مخصوص .

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	أ	و

ولو أعطى المرأة التى تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية

تقصر عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسبته .

ويكثر مثل هذا فى عجائب الخواص .

فمن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية فى الفاتحة - مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - خاصية فى النجاة الأخروية ، أو فى حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التى تلدغ فى القلب ، لدغاً ، أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو مؤثر فى سعادة الآدمى بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن إدراكه .

فمن لم يؤمن بإمكان هذا ؛ فهو عديم العقل والإيمان جميعاً :

مسألة :

أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى .

فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة والمرشد ، وإن احتاج فقد توفى المرشد وتعذرت مراجعته .

فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن ما ليس حاصلا فى علمه ، فليس حاصلا فى نفسه ، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها تخلو عنه خزانة الملك ومملكته ، وأنه ليس فى العالم سماء إلا سقف بيتها ، ولا أرض إلا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإضافة إلى مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة فى بحر ، وإن سلم له وصوله درجة الكمال ،

فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصية ، سبباً للترقى إلى درجات الكمال التى نالها ، أو يكون سبباً لبقاء الكمال ، أو دوامه ، أو يكون لرسوخه حتى لا يتزلزل فى سكرات الموت .

فإن لم يواظب عليها ، فعساه أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال : له إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ، التى هى المكتوبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامير ، تزعزع وانقطع : فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

﴿ ما سلككم فى سقر؟ ﴾

فتقولون :

﴿ لم نك من المصلين ﴾

فعلاج هذا المغرور ؛ الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه ، والسلام .

وحدة الوجود

١ – نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل – بصورة متوقعة – حدة المناقشة فى هذا الموضوع ، وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الموجود .

والموجود متعدد : سماء ، وأرض ، جبال ، وبحار ، أشجار وأناسى إلخ ، وهو مختلف صلابة وهشاشة ، لوناً ورائحة وطعماً ، متفاوت ثقلا وخفة إلخ .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين – ومنهم ابن عربى والحلاج – بوحدة الموجود . .

وماكان لمؤمن ، ولا يتأتى لمؤمن ، أن يقول بوحدة الموجود وماكان للصوفية – وهم الذروة من المؤمنين – أن يقولوا – وحاشاهم – بوحدة الموجود .

وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التى يعتقدها كثير من الناس : من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود ؟ !

وتفسير ذلك لا عسر فيه : إن فريقاً من الفلاسفة فى الأزمنة القديمة وفى الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الموجود ، بمعنى أن الله – سبحانه وتعالى عن إفكهم – هو والمخلوقات شىء واحد .

قال بذلك هيراقليطس فى العهد اليونانى : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه – على حد تعبيره – كالنار المعطرة ، تسمى باسم العطر الذى يفوح منها ، تقدس سبحانه وتنزه عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، فى رأى شلى ، فى العصور الحديثة ، هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العليلة التى تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادى فى ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانعة تنفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ؛ أيضاً – سبحانه وتعالى – القبح أينما كان : وكما يكون طفلا فيه نضرة ، وفيه وسامة ، يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانه هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك .

ولوحدة الوجود – بمعنى وحدة الموجود – أنصار فى كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب فى سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر فى غاية الأهمية كان له أثر كبير فى الخطأ فى فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعرى رضى الله عنه ، رأى فى فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الموجود ، ولم يوافقه الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية ، ولم يوافقه الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعرى أو يصيب ، وما مثله فى آرائه الفلسفية إلا مثل غيره فى هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الموجود ، وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم فى ضوء رأى الأشعرى ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم ففسروا قولهم : بالوجود الواحد

على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة فى آراء هؤلاء الخصوم .

وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات ؛ لأنه أتفه – فى منطق البحث – من أن نعيره التفافاً ، وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، فى معناها ، تافهة فى قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو الإسلامى ، تنادى بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتياتاً .

إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى غيره ، لا توجد فى كتاب من كتبه ، ولم يخطها قلمه .. لقد اخترعوها اختراعاً ، ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال .

ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ – الوجود الواحد : وهل فى الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو البارئ وهو المصور : هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معانى هذا التصوير قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وصلة الله بالإنسان إذن : هى أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذى يريده له فى كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته فى كل لحظة بصورة أمده الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هى على هذا النمط : إنه سبحانه مثلا : ﴿ يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ﴾ إنه يمسكها وجوداً ، ويمسكها تدبيراً ، ويمسكها تماسكا وتناسقاً . إنه يمسك فيهما الكيف والكم ، وإذا ما سحب إمداده عنهما تلاشتا كمًّا وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها فى استفاضة مستفيضة ليهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى فى عبودية خالصة له . وفى إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن فى هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا فى سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها فى العادة غافلون .

﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ ! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ ! . . .

﴿ أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ؟ . . .

وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، وبيده أمر الخلق إيجاداً وإعداماً . . .

أرأيت إلى هذه الرمية التى ترميها : إنك ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

أرأيت إلى الانتصار فى الجهاد ؟ إن هذا الانتصار من عند الله ؛ فأما القتلى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ورزق الإنسان هذا وطعامه :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنّا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبّاً ، متاعا لكم ولأنعامكم . . . ﴾

٣ - هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتاً ، إنهم يمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ، لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، إنما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : إنهم يمرون بآيات الله فلا يشهدونها . وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يحتل فى قلوبهم ولا فى تفكيرهم ، ولا فى بيئتهم ، ولا فى حياتهم ، قليلا ولا كثيراً . .

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقا فى محيط الإلهية : سبحوا فى بحارها ، واستنشقوا نسائمها الندية . وغمرهم لألاؤها

وضياؤها ، لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعائه وآلائه التى تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعما وآلاء

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ... ﴾ .

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اكتفوا بالله هادياً ونصيراً ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئاً فشيئاً ، يحاولون تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة ، وتذوقاً ، وتحقيقاً ، أخذوا يرون فى « أشهد ألا إله إلا الله » معانى لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم فى صورة لا تخطر على بال اللاهين ، الذين شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وبدءوا يحطمون الشرك : يحطمون أصنامه وأوثانه . من النفس ، والهوى والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية ، والغرائز الإنسانية . وأنهار الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفى ، وثبت فى أذواقهم واستقر فى أحوالهم ومقاماتهم : أن « لا إله إلا الله » وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشريهم : إنه يغمر كيانهم : فلا يرون غيره سبحانه . لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره مصرفا لليسير من الأمور ، وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكا للملك : يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله فى بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفى قلبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكاناً للأغيار .

٤ – وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا فى محاولة جاهدة مستمرة – لانتزاع الإنسان من الإخلاد إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التى تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شىء خلقه ، سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : فى الزهرة تتفتح ، وفى الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفى الشمس تشرق ، وفى القمر يتألق ، وفى مواقع النجوم ومداراتها . . .

وفى كل هذا الإبداع السارى فى الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور .

الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسيرا ﴾ .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم – فى تعبيراتهم يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى : الممد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة . . .

إنه – على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذى يقطع ، وليست السكين هى التى تقطع ، وهو الذى يحرق ، وليست النار هى التى تحرق ، وهو

الذى ،حينما يريد ، يقول للنار كونى برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاما .

ومهما عبر الصوفية ، فى هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا فى ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة التى تمثل فى روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل والتى لا تعنى وحدة متحدة ولا اتحاداً مطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هى :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنته مسيطرة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن :

لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن والسنة ، يريدون للإنسان أن يكون ربانيا ، فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائماً إلى أسفل ؛ فليس ذلك ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاد إلى الأرض وبالنظر إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ، ويوجههم إلى الله ، تعالى فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم معروف .

٥ – وقد تتساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ! ؟

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف سرها ، وما كان سرًّا فى يوم من الأيام .

لقد كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركزاً للجاذبية لا يضارع ، يلتف حوله الناس أينما حل ، ويسيرون حوله أينما ارتحل .

وكان ككل صوفى - : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ ، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومادام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيجب - حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لاستقرارها - أن ينكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينيًّا قط كلا ، وإنما كان سياسيًّا بحتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يعدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم . . .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . . . والدين من كل ذلك براء والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لا تسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة .

إن المنطق الصحيح : ألا يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، فى أعمال المهندسين . . .

ومن العدالة - على هذا الوضع - : ألا يحكم على هذه القمم الشامخة ابن عربى ، الحلاج ، ابن الفارض ، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، ينتقد ابن عربى فى المجلات ، فقال : رضوان الله عليه ، وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعى – رضوان الله عليه – فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيى الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » اهـ

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأى الحق ، هو ما قاله الإمام الشعرانى عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محيى الدين خاصة : « ولعمرى » إن عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم ، رضوان الله عليهم » اهـ

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضى الله عن سيدنا محيى الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفعنا بهم ، وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

السجود (*)

١

يروى الإمام مسلم – رضى الله عنه – فى صحيحه : عن أبى فراس ربيعة ابن كعب الأسلمى ، – خادم رسول الله ، ﷺ ، ومن أهل الصفة – رضى الله عنه – قال :

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : سلنى : فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » .

والسجود إذن مما يعين على ترويض النفس ، لتتزكى ، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة .

وفى هذا المعنى ، يروى مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن ، ثوبان مولى رسول الله ، ﷺ ، قال :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذى يريده رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – فى هذه

(*) إن موقف الصوفى من التعاليم الدينية هو موقف الساجد لها – وبدون ذلك لا يكون صوفيا . ومن أجل ذلك وضعنا هذه الكلمة فى هذا الفصل .

الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو – مع هذه الحركة – المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته ووده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه العظمة ، والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية ، أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، فى تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هى رحمة للعالمين يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فإذا ماكان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل –وذلك معناه الصحيح– كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله ، سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلا إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى هذا المعنى : « أقرب مايكون العبد من ربه ، وهو ساجد ، ولقيمة السجود الكبيرة . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود فصلاة الضحى ، يسمونها : « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياته واستجابتهم لأمره ، يقول الله تعالى :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ﴾ .

والذين هداهم الله ، واجتباهم :

﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيًّا ﴾ .

ومن صفات عباد الرحمن ، التى يزكيهم الله بها أنهم : ﴿ يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ .

٢

على أن حادثة من الحوادث قصها القرآن فى غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعانى الخاصة بالسجود ، تلك هى حادثة آدم والملائكة .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ﴾ .

بهذا النبأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيبرؤه سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ .

لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم – مختلطاً بهم – إبليس – وهو كائن يختلف عن الملائكة ، وعن الإنسان إنه من فصيلة الجن .

وكان يعبد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى كان يلقب « بطاووس العباد » لكثرة عبادته وتفانيه فى العبادة ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهى بالسجود ، لم يسجد ، لقد أبى ، والإباء ضد السجود واستكبر ، والاستكبار : ينافى الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك فى صراحة فيقول :

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ .

هذه قصة معروفة ، نمر عليها فلا نكاد نعيرها التفاتا ، بيد أنها جديرة بالتأمل والاعتبار .

والقضايا التى نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهى فى نفس الوقت ذات دلالة عميقة هى ما يلى :

١ - لقد صدر أمر إلهى بالسجود . فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ - إنه طرد . لأنه لم يستجب للأمر الإلهى مع علمه بأنه أمر إلهى .

٣ - وكان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء فى نفسه . وعن تمرد فى فطرته .

٤ - لم تلغ عبادته كبرياءه ، فهى إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لوكانت خضوعاً ، لنفت الكبرياء وأزالته ، هى إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء : كما تمثل فى مخالفة الأمر الإلهى ، تمثل فى المحاولة التى أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلا :

﴿ أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى . ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس عبادة له ، وإنما هو عبادة لله . لأنه خضوع لأمر الله . وحسب .

٦ - والموقف السليم ، إذن هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها من أنه عند الأمر الإلهى : يجب أن تكون الاستجابة فورية ، هذا هو ما ترشد إليه فى صراحة كلمة : « إذ » فى قوله تعالى :

﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ .

ومن الطبيعى أن تكون هذه الفورية فى كل أمر بما يناسب وضعه الزمانى والمكانى .

٧ – والقضية الأخيرة التى نختم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصــة هى أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافى للرقى فى مدارج السمو الروحى ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن .

ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهى للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، أن يختلف علماء الإسلام فى المفاضلة بين الإنسان والملك .

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان ، لا تنتهى إلى حد :

« ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

فباب الفيوضات الإلهية إذن مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله ميسور .

وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره برضوانه .

أما المبدأ الهام ، الذى نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعلم علماً يقينيًّا أن الله موجود ، وقد علم فيا بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . ومحمداً عليهم الصلاة والسلام .

إنه يصدق بأن لا إله إلا الله ، ويصدق بأن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله ، ومعرفته بهذه المسائل هى من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة

كثير من المؤمنين . .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجود ، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان[٦] .

لقد كان سعيد بن جبير – رضى الله عنه – يقول : « ما آسى على شىء من الدنيا إلا على السجود » .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجاد » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود – كما هو المتبادر إلى الذهن – ليكون على النقيض من إبليس . ونختم هذه الكلمة بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله – معه فى حال حياته . وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته – : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ : إنه النور الذى يشرق على جباههم لسجودهم لله وحده ، وهو الغرر التى ستكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

٣

ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل فى أوامره – سبحانه وتعالى – أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هى : كبرياء ، وهى إبليسية . وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا

---

(٦) يقول الله تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

ويقول ، ﷺ . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

بدور إبليس فى المجتمع الإنسانى ، إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحى الإلهى جملة ، أو يحاولون أن يزنوا الوحى بميزان العقل ، فيرفضوا ويقبلوا ويؤولوا ما شاء لهم الهوى ، ويوفقوا ويلفقوا ، ويوجدوا بعقولهم المآزق التى يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

وخلفاء إبليس هم أولا وبالذات : الملاحدة :

إنهم على نسق التعبير الجارى : إبليسيون أكثر من إبليس : ذلك : أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثا ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ، ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم على زعيمهم قد أرضوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلا ﴿لأقعدن لهم (لبنى آدم) صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ .

ولقد نجح إبليس نجاحاً تامًّا فى طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأخس درجات الملحدين لا شك ، إنما هى درجة هؤلاء الذين اعتقدوا - على حد تعبير الغزالى - « أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا » .

وإذا ما سألت هؤلاء : « أخلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون ؟ » كانت حيرتهم فى الإجابة كافية فى البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا إذن إلا عبيدا لإبليس .

وهناك الإلحاد بإنكار البعث . . .

والإلحاد بإنكار الرسالة . . .

بيد أن هؤلاء وأولئك وتلكم يصدق عليهم :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة : فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ ﴾ والطريق الذى ينقذ به هؤلاء نفوسهم وقلوبهم إنما هو المبادرة بالسجود لله لا للهوى المردى ، فيتكشف الله لهم فى كل شىء وتظهر لهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . وإن من أحدث اختراعات إبليس فى هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب المسمى ، الوجودية : وهو مذهب يدعو كل إنسان أن يحقق وجوده حسبما يرى وتبعاً لما يريد ، غير متقيد بعرف ولا عادات ولا تقاليد ولا دين ولا أوضاع أيا كانت ، وهو إذن يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتاب الغربيين :

« إن الوجودى مثله ، كمثل الكلب الذى يجرى دائراً حول نفسه ليمسك بذنبه ، فلا يدرك ذنبه وهى لعبة تلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ فيلهون بما لا نتيجة له » .

على أن المذهب الوجودى قديم : إذ أنه المذهب السوفسطائى اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائماً فى عصور الانحلال ، وفى البيئات المنحلة ولا وجود له فى عصور الجد ولا فى البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة ، لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب – حينما تلهو الكلاب – فى الجرى وراء أذنابهم ليمسكوا بها .

فالوجودية ؛ إذن اختراع إبليسى ، لإخراج طائفة من البشر عن نطاق

السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

وخلفاء إبليس ثانياً هم : طائفة الفلاسفة العقليين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية – مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافهم وتزيين غاياتها – ليست إلا محاولة لتحكيم العقل فيما أتى به الوحى أو بتعبير أدق هى محاولة لإحلال العقل محل الوحى .

وهى من غير ما ريب تريد أن تخترع عقليًّا ما فرغ منه الوحى فى قضاياه ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلى بجوار الدين الإلهى ، وهذا الدين العقلى يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف فى هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهى .

فإذا كانت البيئة متشبعة بالدين الإلهى : يغمر قلبها الإيمان ، ويغمر وجدانها الهداية ، حاول المتفلسفون – فى طريقة إبليسية – أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخطئهم التوفيق ، فيما يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم قلوبهم وأفئدتهم – هواء

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ، وظنونهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحى والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير فى ركابه إلا أتباع إبليس .

والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التى لم تسجد لله ، إلا شكلا فإنها ، طائفة المعتزلة من علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على

تحكيم العقل فى الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ أفمن زين له سوء عمله : فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالذات الإلهية والصفات وكالقدر .

وكان لابد وقد اتبعوا - أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقاً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل تحت حصر .

وكل من نهج النهج العقلى - أى تحكم العقل - فى الدين فى العصر الحاضر ، إنما هو تابع للمعتزلة ، وكل مدرسة من هذا القبيل فى العصر الحاضر إنما هى مدرسة اعتزالية فى مبادئها وأصولها ، وهى مدرسة اعتزالية فى غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تضع قضايا الدين . . فى ميزان عقلها فتنفى وتثبت ، حسبما تقتضيه الظروف والملابسات أى حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية فى الدين ، أيًّا كانت وفى أى مكان وجدت ، وفى أى زمان نشأت :

لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل وعبدت العقل فتفرقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق : ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ﴾ .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين فى

العلم ، إذ الراسخون فى العلم هم دائماً مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة :

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .

ومن البديهى أن المؤمن الحقيق ، هو وإبليس على طرفى نقيض ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل الصور الإبليسية على تفاوتها واختلافها ، ويبين جزاءها عنده فيقول سبحانه :

﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

هذا وبالله التوفيق .

الفصل الثالث

التصوف والمعرفة

- البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث .
- فى وسيلة المعرفة .
- التصوف والشك .
- الشك ومدارج السالكين .
- الإمام الغزالى يرسم طريق المعرفة .
- مشكلة المعرفة الصوفية .

البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث فى المغيبات ، ولكننا قد لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لا نعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد اختلفت ؛ فيما يتعلق بمنهاج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .

وقد انتهى الاختلاف إلى النتيجة الحتمية وهى أن يكون شاملا لكل المساتير ؛ فمن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق عام ، يفرق فى الوهم ، ويبعد فى الضلال ، حتى يصل إلى التخريف بأوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيها العد : فمن تشبيه مطلق ، إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ، ومن حلول ، إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار فى الرأس ، وتبعث براهينها الشك فى جميعها ، إلا من عصم ربى ، فوفقه إلى طريق الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربى ، ذلك أن اتباع الطريق السوى ، توفيق من الله ، وليس هو اكتساب العبد[1] ؛ فالحلول — مثلا — عقيدة راسخة ، آمنت

---

(١) قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) .

بها البيئات المسيحية – وفيها من أساطين المفكرين ما لا يحصى – منذ ألفى سنة والتشبيه آمن به كثيرون .

ووحدة الوجود بالمعنى الفلسفى ، لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون أن ما عداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت فى فترة من الزمن ، أو فى بيئة من البيئات ، وكل بيئة تعتقد أن ما لديها خير ما أخرج للناس : « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دائم ، تتهافت فيه الأدلة ، مثخنة بالجراح ، ولكنها تأبى – فى غطرسة – أن تعترف بالهزيمة ، فتأخذ فى تضميد جراحها ، لتعاود النزال من جديد ، ولتنهار – أيضاً – من جديد .

ولو سرنا حقيقة فى المنطق إلى غايته ، لوصلنا إلى الحيرة ، والشك فى كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق الشمس – إذا كانت مشرقة – فسوف لا يستجيب لك شخص ما ، وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهكذا الأمر فى جميع المحسات .

بيد أن ذلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر .

ربما يقال : إنه من الطبيعى : أن يكون الحس طريق المعرفة المادية ؛ وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، ومادامت المغيبات من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها ؛ إذن إنما هو العقل ؛ ومادمنا قد وثقنا بالحس فى معرفة الماديات ؛ فلنلتزم بالعقل فى معرفة المغيبات .

هذا النمط من التفكير يبدو موفقاً ولكنه محض سفسطة ، فالتصور – وهو

أساس المعقولات – لا يقوم إلا على الحس ؛ وإذا جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر ، ومهما أغرق الشعراء فى الخيال ومهما أبعدوا فى الوهم ، فابتداعاتهم ، وصورهم المبتكرة ، منتزعة من الواقع والاختراع : تنسيق للمحس على نمط جديد ، ولا فرق مطلقاً بين ذهن العبقرى الفذ ، وذهن الجاهل الغبى . فى أن كلا منهما يعتمد على الواقع المحس ، فى تصوره ، وفى تخيله .

والصورة المبتكرة – من حيث عناصرها – أسطورة من الأساطير ، أو وهم من الأوهام التى لا وجود لها ، ومادام الأمر كذلك ، فالتفكير المجرد عن المحسات معدوم [٢] ومادامت المساتير لا شأن لها بالحس فكل تفكير فيها لا يؤدى إلى نتيجة .

---

(٢) منذ سنوات كتبت بحثا عن التخيل أقتطف منه مايلى ، توضيحا لفكرة ارتباط التصور والتخيل بالمحسات .

(١) الخيال والواقع إذا نظرنا إلى العناصر التى تكون مادة التخيل ، فإننا لانجد فيها شيئا جديداً ، وكل ماللمتخيل لايعدو أن يكون تنسيقاً ، فصورة أبى الهول هى وحدها الجديدة أماما تكون منه – نعنى جسم الأسد ورأس الإنسان – فليس ذلك بجديد .

وكل مالم يخضع لحواس الإنسان فإنه لايمكن الإنسان أن يتخيله إلا إذا شبهه بما وقع تحت حواسه ، وماتصور الناس الغول والعنقاء والجن والشياطين إلا على مثال ماسبق أن رأوا .

وحينما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل له جناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » إذ أن كل ماخطر بالبال لايمكن إلا أن يكون ماديا محسا ، وكمال الله يقتضى تنزيهه عن المادة وعلائقها .

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم فإنهم تخيلوا الله – جل وعز – على صورة رجل ضخم .

ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج الذى حضر مجلساً من مجالس المعتزلة ، فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون . « إنه سبحانه ليس بفوق ، ولابتحت ولابيمين ولابشمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ولا بعرض فخرج ثائراً يعلن أن . هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : إنه ليس فى =

لقد أطال العلماء فى بحث الآراء الموضوعية والآراء الذاتية . ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلا : ذلك لأنها تعتمد – الاعتماد كله – على الحس . أما الآراء الذاتية – وهى قائمة على أسس أخرى – : فإنها مجال للأخذ والرد . ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق ، هى الميدان الخصب للآراء الذاتية ، فإن الإلهيات – وهى حجب ومساتير – ميدان أخصب لذلك لا يعدو البحث فيها أن يكون « علماً كلاميا » ، أو « علماً جدليا » .

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل ، ومهما رفعوا من شأنه : فمن البديهى : أن

= السماء إله ، هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسات ولم يمكنه أن يعقل ما لم يتخيله » فاعتقد . أن المعتزلة ينكرون الله .

هذا ، وحاول أن تتخيل أنت مافى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لايخطر لك على قلب ، ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئاً آخر غير مارأته العين ، أو سمعته الأذن .

ثم إذا كنت قد قرأت ما قيل عن مدينة المستقبل ، وماكتب عن المدينة الفاضلة فقد رأيت أنه برغم إرادة الإغراب أو التجديد – لم تخرج تلك المدينة عما رأيته ، سوى أنه مكون تكويناً جديداً .

لايخرج الخيال إذن ، فى عناصره عن الواقع ، ولايمكن الإنسان أن يتخيل إلا المحس .

(ب) التخيل والبيئة : إذا قرأت تشبيها للعاب المرأة بماء غير آس ، وللشيئين المتشابهين بأنهما كخفى بعير . فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذى نبع منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومى ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لايتخيل كتخيل ابن المعتز ، ضاربين له مثلا ، تشبيه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر » فأجاب هذا يصف آنية بيته .

وأظنك تقر معى أيضاً ، أن البيئة العلمية فى العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديو فلم يخترع .

هذا وكثير غيره يرشدنا إلى ماللبيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر بما فى بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية . والأمر لايقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيئته .

وكلما كثرت المثل فى بيئته ، وكلما سمت موازينها الأخلاقية ، كلما كثر الرشد فيها وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

الميدان الذى يتخبط فيه العقل تخبطاً لا نهاية له : إنما هو ميدان ما وراء الطبيعة .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة ، على ما فيه من روعة ، ودقة ، وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، فى ميدان المنطق الدينى ، لا يقوم على أساس « معقول » .

قد تقول : إن العقل – وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً – له مقاييسه وله موازينه التى لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق ، القديم منه والحديث : آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى التفكير ، ولقد جاهدت الإنسانية جهادًا طويلا ، حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، والتفرقة بين العماية والعمياء ، والصواب والأصوب .

فالاستقراء والقياس – إذن – هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الغى والرشاد ، فمن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين – وقد اعتمدوا عليهما – أن نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولا : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة – مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس – قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة تختلف – فى قليل ، أو فى كثير – عن نتائج استقراء آخر وقياس مختلف .

وأما ثانياً : فلأن الفكرة – المنطق يعصم الذهن عن الخطأ فى التفكير أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح – فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقية وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هى كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء – وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية – فإنه :

١ – مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسات ، إنه تتبع جزئيات ، لا تخرج عن نطاق المادة ، أما المساتير فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ – ثم إن الاستقراء : تام[٣] وناقص والتام – كما يعترف المناطقة لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناقص – وهو المهم فى نظرهم – فإنه فى رأيهم أيضاً – ظنى وهو – لذلك عرضة للتغيير ؛ فى كل آونة .

«كل معدن يتمدد بالحرارة تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف ، بعد ، بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ، ظنية يتبرأ منها اليقين الفلسفى .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله – وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها »[٤] .

---

(٣) « الاستقراء : وهو حكم على كلى لوجوده فى جزئيات ذلك الكلى إما كلها : وهو الاستقراء التام الذى هو القياس المقسم . وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته للقياس ظاهرة لأنه فى القياس يحكم على جزئيات كلى لوجود ذلك الحكم فى الكلى ، فالكلى يكون وسطاً بين جزأيه ، وبين ذلك الحكم الذى هو الأكبر ، وفى الاستقراء يقلب هذا فيحكم على الكلى بواسطة وجود ذلك الحكم فى جزئياته » عن « البصائر النصيرية » .

(٤) مقدمة فجر الإسلام .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبنى على الاستقراء إذ هو منطو دائماً على كلية استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها المحسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسات .

٢ - ثم إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون - كما يقول : صاحب البصائر النصيرية - « منكرة » كاذبة فى نفسها » وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته إذا كان لا يعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج ، بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى الاستقلال الفردى ، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد

للمجتمع – كان هذا أيضا قياساً صحيحاً عند المناطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان ! !

٣ – ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا : « محمد إنسان وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم بالكبرى والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت فى شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان . إذن تكون الكبرى : متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالا دوريا فاسداً فلا يعول عليه .

٤ – وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة ، من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمَّنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس لا يؤدى إذن إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه – إذا أردت الدقة – استنتاج معلوم من ... معلوم .

تلك هى موازين العقل وسنزيد الأمر – أمر قصور العقل – إيضاحاً فى فصل تال – وهى موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها .

العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع ، فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

بيد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فما يتعلق بتحديد الخير والشر ، فإنها ، فى المغيبات : لم ترهق الإنسان من أمره عسراً ، فتوضح له ما ليس فى مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن التبيان .

أما هذا الذى يسمو عن التبيان ؛ فإنه ذلك النوع من المعرفة الذى لا يدخل فى نطاق المحسات ، وبالتالى لا يدخل فى نطاق العقليات : أعنى : المساتير .

وإنه ليعجبنى فى هذا المقام قول ابن « عبد البر » المتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ :

إن الله ليس كمثله شيء : فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر .

لذلك رسمت الأديان فى هذا المحيط إطاراً عامًّا فقط ، وهذا الإطار العام نفسه مبنى بعضه على الحس ، وهو داخل فى نطاق الآيات المحكمات التى هى : أم الكتاب : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

والعامى يقول عن المشاهدة : « المركب التى فيها رئيسان تغرق » .

أما بعضه الآخر فهو المتشابه ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ .

وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقة إذ تقول :

« محال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذى تنقب به من لا يفنى » .

رسمت الأديان إطاراً عامًّا ، ولكن هذا الإطار لا يرضى النفوس الطلعة ، التى أبت خطأ – أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور فيه ، فبحثت داخل هذا الإطار وخارجه ، فكان ماكان من تشعب ، وفرقة واختلاف .

إننا لا نشك فى أن رؤساء الفرق الإسلامية – معتزلة كانوا أو أشاعرة ، وشيعة كانوا أم سلفيين – قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة دينية فائقة ، وعقيدة لا تزعزعها الأعاصير.

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة ، كتاب الله ، وحديث رسوله .

فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا التشعب الذى لا ينتهى ؟

لسنا – فى تعليل ذلك – أمام مشكلة لا تحل ؛ إذ الشأن فى ذلك إنما هو الشأن فى كل الآراء الذاتية ، التى لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصى وحده .

ولو استقامت امور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك : التسليم المطلق :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

* * *

آراء ذاتية داخل الإطار العام ، آراء هى من صنع البشر ، آراء تتحد فى نسبتها – من حيث القرب والبعد – إلى النصوص المقدسة إنها : « آراء » .

بيد أن النزعة التى صدرت عنها هذه الآراء – وهى الاستعداد الشخصى : نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من عالج – فى إخلاص – تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هى الذات . فإنه يقر معنا : أن ذلك إنما : علمه عند ربى .

إن الطريق الأقوم – إذن – هو التسليم المطلق .

وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح .

يقول الإمام الغزالى :

« والتحقيق بالبرهان علم ، ..

والقبول مع التسامح والتجربة بحسن الظن : إيمان » .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لا شيء إذن مما سبق من وسائل المعرفة : يصل بنا إلى المعرفة المباشرة فى محيط ما وراء الطبيعة .

وتلك هى النتيجة التى نريد من كل ما سبق الوصول إليها .

وإذا أردنا تلخيص ما نريد أن ننتهى إليه قلنا :

١ - الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغيبات ؛ فإننا لا نحسها .

٢ - العقل - وهو مبنى على الحس - قاصر كذلك .

وإذن فعلم الكلام الذى لا يسير على نهج سلفى - وهو آراء من صنع البشر - ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة . وهو عبث ، وهو انحراف عن سواء السبيل .

قال الإمام مالك : الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه : نحو الكلام فى رأى جهم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل .

وقال الإمام مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟

هل معنى ذلك : أن المعرفة - فيما يتعلق بالإلهيات - : غير ممكنة ؟

هل معنى ذلك : أن الغطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه

لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل إذن إلى المعرفة ... ؟

فى وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ، وهو المنارة التى يهتدى بها الإنسان كلما انبهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .

وحياته قبل البعثة كحياته بعدها – : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى : يكاد يعتقد أنه اقتنص اقتناصاً ، واضطره إلى النزول اضطراراً ، وأنه أبى إلا أن يظفر بما يريد ، فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية لتتجلى ، عن طريق اختياره رسولا .

يقول الإمام المراغى رحمه الله :

النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه : قاضيان بأن تمنح للمستعد لها ، القادر على حملها : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ومحمد ، ﷺ : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه ، أحمره وأسوده ، إنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يختم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده ، إلى أن تنفطر

السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات [٥] اهـ .

أما هذا الإعداد ، فقد حاطه الله بعنايته التامة ؛ إنه أعده من ناحية أسرته : أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع رضى النفس » سخى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه ، نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ، ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً [٦] . .

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش » :

فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها ، أو يتسمون بها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز : فلم يكن يصدر فى حياته – كما كانوا يصدرون – عن الروية والتفكير ، وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب فى الحياة ، قوة خفية ، يحسها ، ويأبى عليها ويغلو فى الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ، ويصدر بأمرها [٧] .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع

---

(٥) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

(٦) انظر كتاب . « على هامش السيرة » .

(٧) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً ، واضح المخايل ، بين الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمور .

وكان فى هذا الصوت غموض ، وكان فى هذا الصوت إبهام .

وكان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام ، وكان الفتى ينكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإلمام ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة المعنى »[8] اهـ.

أما والده – عبد الله – فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره : « أما الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : إنى لأعرف فيك نسك أبيك .

قبيلته : قريش : وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبد المطلب ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره أجل ! وهذه الفترة من حياته التى سبقت البعثة . كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل الوثاب . الذى يشحذ العزيمة ، ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت – على حد

(٨) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

تعبير الجنيد فى تعريف التصوف - عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام ، جهاده الروحى المتصل ، بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق أو شبه المطلق . عن كل ما سوى الله ، وهناك فى سجوة الليل ، أو فى رائعة النهار : يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته وكبريائه وجلاله .

ها هو ذا الرسول ﷺ ، يبذل مجهوداً جباراً ، لا يكاد الإنسان يتصوره ، فضلا عن أن يأتى بمثله .

وها هو ذا ، يرى الهدف بعيدا لا يكاد الإنسان يفهمه ، فضلا عن أن يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق وعثاء ، صعبة المرتقى بيد أن ذلك كله لم يكن إلا ليزيده عزماً على عزم ، وإرادة على إرادة . ونشاطاً مضاعفاً .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس لتتزكى .

وتمضى السنون ، بطيئة سريعة فى آن واحد ، وجهاد الرسول ﷺ ، لا يفتر حتى أصبح ، أوكاد ، روحاً خالصة ، أو قبساً من نور الله ، وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالى إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حين أقبل على جبل حراء حيث تبتل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه ! » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه (فى التحنث) خير ما يمكنه : من الإمعان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير ؛ وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهام ما فى الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكة - غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ، ممعنا فى التأمل ، والعبادة ، بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، ملتمساً الحق ، والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه وينسى كل ما فى الحياة ؛ لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله : ليس حقًّا . . . .

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى فى رؤاه الصادقة ؛ وقد خلصت نفسه . . . وقد أدبه ربه ، فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه ، بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال ، وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود

فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له فى رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على مايرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوجة المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها ، ولا بخاطره : أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية ، إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحى الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة :

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفى يده صحيفة فقال له : « اقرأ »[9] .

* * *

هذه الحياة التى هداه الله لها – لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية – هى التى رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ، طريق البصيرة بل طريق المشاهدة . على ما يرى الصوفية .

وهذه الحياة التى علمناها عن الرسول ﷺ إجمالا : قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجيًّا » غاية فى الاحكام : يتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى درجة – لا نقول : إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية – يكون ما بعدها بعيداً كل البعد عن إدراك الطبائع البشرية العادية ، فلا يمكن التمييز عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس ، وسموه : منازل السالكين ، ومدارج السالكين ومنازل الأرواح ، وهو عبارة عن المقامات والأحوال التى يسلم كل مقام منها إلى ما بعده ، وكل حال منها إلى الذى يليه ، حتى يصل

---

(٩) من حياة محمد (للدكتور هيكل) .

الإنسان إلى القرب ، والمشاهدة . ويستغرق فى ملكوت يسمو على الوصف .

يقول الإمام الغزالى : « ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

التصوف والشك

يعرف كثير من الناس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ، والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم اللدنى : أى بهذا النوع من المعرفة اليقينية ، الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تعبث به السفسطة .

وإذا كان هذا التعريف غير جامع مانع فإنه – لا ريب – يرينا ما للمعرفة اليقينية من أهمية .

فتصفية الروح ليس غرضاً من أغراض الصوفية إلا أنها تمهد للاتصال بالله ، ولتلقى المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق الإلهام ، هى معرفة لا يتطرق إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المنطق ، وأنت تحاول عبثاً ، إذا أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى ، أو أن تحوله عن رأيه ، إذ كيف يحيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملأ الأعلى ، فى فترة صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق إرادة وتعاليم عليا سامية ؟

على العكس من ذلك تماما نرى الشاك : فهو شخص لا يعترف بحقيقة ، أولا يعترف بأن هناك طريقاً يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ، وعبثاً تحاول أن تقنعه بعقيدة ما ؛ إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بديلا وإن يدهش لشىء فإنما يدهش لعدم اقتناعك بفكرته فى الشك يعطيك على صحتها البرهان ، تلو البرهان ، والحجة تلو الحجة حتى تعترف « فى النهاية » بأن رأيه له منطقه .

يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ، بل تعارض وتضاد .

ومع ذلك فإن الصوفى ، والشاك ، قد يتفقان فى المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول : إن الحالات التى تؤدى بالصوفى إلى التصوف ، هى – فى بعض الأحيان – نفس الحالات التى تؤدى بالشاك إلى رأيه ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه ربما أدى إلى التصوف .

* * *

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فمعرفتى بالشىء تنتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستنتجه ، بدليل عقلى .

كثير من الناس ، بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذون المعرفة الناشئة عن هذين الطريقين قضية مسلمة ، لا تقبل جدلا ، ولا يحيط بها شك .

ولكن فى العالم أيضاً ذلك الشخص ، الذى يرى أنه ما دامت الحواس تخطىء فهى ليست أهلا للثقة إنى أرى السراب فأحسبه ماء ، وتسيطر على فكرى صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ، فأرى الصورة ممثلة أمامى والمريض يرى خيالات ، لا حقيقة لها ، والخائف يرى أشباحاً ، ويسمع أصواتاً لا وجود لها . إن الأمثلة لا تحصى ، وكل يوم ، بل وكل فترة ، تعطينا دليلا على خطأ الحواس فهل بعد هذا نثق بمعرفة تأتى عن طريقها ؟ كلا .

بقى العقل ولكن ما قيمته ؟ كل ينتسب إليه ، ومع ذلك فلا تجد اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التى لا تكاد تعد كلها مبنية على العقل ، وكلها

مؤسسة عليه ، وقائمة به ، وكلها جذابة أخاذة تغرى بقوة أدلتها . وتستولى عليك بصرامة منطقها ، ومع ذلك فلا تكاد تتفق فى شىء ما .

ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلى ، منطقى على أن الأرنب لا يلحق بالسلحفاة – مهما أسرع فى العدو – إذا بدأت السلحفاة قبله وسبقته بمتر ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم فى سيره لا يتحرك ؟

وأنت نفسك : أليست آراؤك فى حالة التشاؤم ، غيرها فى حالة أخرى ؟ وفى حالة السرور ، غيرها فى حالة الحزن ؟

ثم البراهين ، التى ترى قوتها ، وتعتقد فيها حالة الحلم ليست أقل من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية . .

هكذا إذا أخذتَ فى تعداد الأمثلة على أخطاء العقل ، فإنك لا تكاد تقف عند حد .

* * *

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها ، وأخطأ العقل فلا ثقة به ، فهل معنى ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

يجيبنا الشاك نعم ، وسنمكث إلى الأبد محكوما علينا ، بالجهل ، أو إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .

ولكن الصوفى – بعد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك فى قيمة الحواس والعقل . وفى قيمة المعرفة الناشئة عنهما – يعود فيثبت المعرفة عن طريق آخر : هو الإلهام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدنى ، كما يقولون .

إذن : قطع الصوفى ، والشاك المرحلة الأولى معا ، فوصلا إلى الشك ،

فرضى به أحدهما ، واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطوة أخرى ، خطاها لا ليضع لنفسه منطقاً ، أو منهجاً يسير عليه ليعتصم من الزلل الذى توقعه فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل الفلاسفة - وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ؛ لا يتسرب إلى نتائجه شك .

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ، ولا ترغب فى اتخاذ الإنكار مذهباً ؛ وقاعدة ، وأنها - على كثرة حبها للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع - تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ؛ وأعمالها .

ونرى - أيضاً - أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التى تضطرب فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث فى النفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت واستمرت سببت أحياناً الانتحار . وأحياناً الجنون ؛ ولكنها - أيضاً فى بعض الأحيان ؛ تؤدى إلى التصوف .

نعم ! تؤدى إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأ تستقر فيه نفسه ، وتهدأ ، وتسكن ، وحيث يجد اليقين ، والإيمان والعلم الثابت :

لقد كان « الحارث بن أسد المحاسبى » متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث والاطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يعتوره الشك ، إلى رأى يقينى ، ثابت لا يتزلزل .

ولكنه بعد أن بحث ، زاد حيرة - بدل أن يزيد إيماناً - واضطربت نفسه وخشى أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكد وجد ، ثم يئس من أن يصل إلى النتيجة .

ولكن الله وفقه فى النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين فسكن إليهم وأخلد ، سكن إليهم وأخلد ، لا لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم بعثت فى نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن سيماهم على وجوههم تبعث الثقة ، وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبى نفسه يصور حالته – والنص الذى نثبته الآن من مخطوط له بدار الكتب المصرية ، اسمه : « النصائح » [10] – وقد تعمدت إثبات هذا النص كاملا ؛ لما بينه وبين كلام الغزالى فى كتابه : « المنقذ من الضلال » من شبه ، يهم كل باحث فى التصوف معرفته :

قال المحاسبى بعد مقدمة موجزة :

« أما بعد فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها ، فلم أزل – برهة من عمرى – أنظر فى اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ونظرت فى مذاهبها ، وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً ، غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة فى اتباعهم ، وأن الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاؤه عسير ووجوده عزيز .

---

(١٠) طبع الكتاب أخيراً بعنوان « الوصايا » فى القاهرة ، (مكتبة صبيح)

ومنهم الجاهل ؛ فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها .

ومنهم حامل منسوب إلى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم متشبه بالنساك متجر بالخير لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ولا معتمد على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون ، على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وإلى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً ، فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم . وأعملت الفكر ، وأطلت النظر .

فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد . ويضل عن الحق ويطيل المكث فى العمى .

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى .

ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برسول الله ﷺ .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجمعين على أن الفرائض والسنن عند العلماء بالله . وأن الفقهاء عن الله العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله ﷺ المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر الله ، وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجمع عليهم والموصوفين ، أقفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وهم المنفردون بعلمهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفجأنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

فانكمشت فى طلبى عالما لم أجد لى من معرفته بدًّا ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن [11] فى النصح .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى : مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته ويوصون كل واحد بالصبر على البأساء والضراء ،

---

(11) أفتر ولم أتلبث .

والرضا بالقضاء والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى ، علماء بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ورعين فى مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح زاهدين فى الحلال مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد مشغولين بيثهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المضنى ، فشغلوا ، عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع ، بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى .

فتبين لى فضلهم ؛ واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العالمون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم .

فأصبحت راغباً فى مذهبهم مقتبسا من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبًّا لطاعتهم لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً .

ففتح الله لى علماً انفتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ورجوت النجاة لمن أقر

به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ؛ ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ؛ ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده ؛ ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ورأيت انتحاله ؛ والعمل بحدوده ؛ واجباً على واعتقدته فى سريرتى وانطويت عليه بضميرى وجعلته أساس دينى وبنيت عليه أعمالى وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل : أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به معرفتى بتقصيرى فى ذلك . وإنى لا أدرك شكره أبدًا » انتهى كلام المحاسبى .

وليس المحاسبى بدعاً فى ذلك وإنما يتفق معه الإمام الغزالى ، بل الإمام الغزالى أوضح وأدق :

حاول أن تتصور معى حالة الإمام الغزالى النفسية فستجده متلهفا على المعرفة محبا للاطلاع والدرس والبحث ، غارقا فى محيط الفلسفة والعلم ، ولكنه مع كثرة اطلاعه وتنقيبه لم يجد فى المذاهب الفلسفية ما يرضيه ولم يجد فى الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ فى تأليف مذهب فلسفى جديد ، إذ مصير ذلك – حتماً – مصير ما سبق من المذاهب التى وإن أخذت بألباب كثير من الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم . والتى تبعث التفرقة :

إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك إلا الشك إذن :

وفى الواقع : لقد شك الإمام الغزالى : شك فى الحواس وشك فى العقل ، وشك فيما ينتج عنهما :

ولكن نفسه اضطربت ونحل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعاً ولم يجد ملجأ ولا عاصماً من هذه الحيرة وهذا الاضطراب إلا التصوف ، فولج بابه واطمأن إليه .

وكتابه : « المنقذ من الضلال » الذى يقص فيه تطوره الفكرى ، يصور هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبى بحديث : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » كذلك يبدأ الغزالى بهذا الحديث ، وتكاد بعض جمله تكون مأخوذة من كلام المحاسبى نصًّا : مما دعا بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالى – فى كتابته لكتابه هذا – تأثر بالمحاسبى فى كتابته لمقدمة كتاب « النصائح » .

وسواء كان صحيحاً أم غير صحيح فما لا شك فيه أن الإمام الغزالى قرأ هذا الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه فى « الإحياء » .

والذى يعنينا الآن : هو أن الإمام الغزالى – كما يصور فى كتابه – بدأ يشعر بعدم الاطمئنان حينما فكر فى هذا الحديث الشريف ، وحينما رأى أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب – على كثرة الفرق ، وتباين الطرق – بحر عميق : غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

لهذا أخذ الإمام الغزالى فى البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين « الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » ثم يقول :

« وعلمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من

اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقيني » .

« ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات » ولكن :

« انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في الحسيات أيضا » .

ثم أخذ الإمام الغزالي يذكر أسباب شكه في المحسات وفي الضروريات وفي العقليات ، وقد ذكرنا طرفاً منه آنفاً .

واستمر الإمام على تلك الحالة « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل : أوترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور : هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال :

« هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

فقيل : وما علامته ؟ فقال :

« التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذي قال عليه عليه الصلاة والسلام فيه :

« إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » .

فمن ذلك النور : ينبغى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام :

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

هذا الشك الذى حدا بالغزالى إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسبى قبله ، هو شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

* * *

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك هو وحده : أساس التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف – فى بعض الحالات : هو شك على نحو ما ؛ سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية .

فهذا الشخص الذى صدم فى عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب ، تلك العاطفة القوية ، الجامحة ، التى تهز النفس هزا ، والتى تؤدى كثيراً إلى الانتحار . .

هذا الشخص الذى صدم فى تلك الناحية : قد تصل به الصدمة إلى الشك فى كل شخص ، أو إلى الشك فى أن يجد مثاله الأعلى فى هذه الحياة ، فيتجه إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف فى مسجد ، أو فى بيته عابداً مصلياً طالباً من الله أن يكون عماده ، وأن يكون ملجأه ؛ وأن يصرف عنه السوء .

وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذى يرى فى كل آونة ظلم الناس ، وفساد الحياة ، والذى لا يجد فى نفسه القوة على الجلاد والصراع ، والذى يصل به الأمر فى النهاية إلى الشك فى المجتمع ، وفى أهله ، فيضيق بالحياة ذرعاً : لا يجد

مفرًّا من أن يعتكف متأملا مفكراً فى مثل عليا ، أو فى حياة أخرى ، أو فى ملأ أعلى ، صفت فيه النفوس وتطهرت ، وسمت عن كل دنس .

وهكذا إذا بحثنا فى حياة الذين أطلق عليهم اسم الصوفية ، فإننا نجد عند البعض نقطة الارتكاز : الشك .

ولكن تلك الحياة التى يتوجهون إليها تلك الحياة الجديدة التى أخذت من النفوس كل مأخذ . والتى اتجهوا إليها فى تحمس وحرارة . لا تزيل من أنفسهم الشك بجميع ألوانه .

حقيقة إنها تزيل من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية : الشك فى تلك الناحية . وتنسى الآخرين : الشك الذى دفعهم إلى حياة التصوف دفعاً .

ولكن النفس التى تتجه إلى الحياة الدينية فى حرارة وتحمس ، إنما تتجه نحو الكمال من الناحية الدينية ، وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة .

ومن المعقول ، ومن المنطق : أن ذلك الشخص الذى اتجه فى تحمس إلى الناحية الدينية ، يرى فى ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تستقر ، إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه ، طالباً من الله الصفح والرضا .

ولكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك فى كثير مما يتصل بحياته العادية اليومية ، ويكاد يتساءل فى كل لحظة : أهذا حلال أم حرام ؟ طيب أم خبيث ؟ حسن أم قبيح ؟ يرضى الله أم لا يرضيه ؟ ويتحرج فى المأكل والمشرب والملبس ، وهذا هو « الورع » .

ولكنه مهما تحرج فى مأكله ومشربه وملبسه ، ومهما تحفظ واحتاط ، فإنه سيجد دائماً . أن ذلك لا يكفى ويشك فى كل لحظة ، وآونة ويندم على ما فات وتقوى فى نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو

إلا هو ، ولعب وضلال وباطل ، وأن خير طريق – إن أراد الهداية أو الرشد – هو « الزهد » فى تلك الحياة ، التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

« توبة » . ثم « ورع » ، ثم « زهد » ؛ تلك هى – بالتتابع – بعض ما يسميه « الصوفية » : مقاماتهم .

ولكن الكمال – كما قلنا ؛ ليس له من غاية ؛ أو من حد . نعم وصل صاحبنا إلى الزهد فى تلك الحياة ؛ ولكن أهذا هو المطلوب ؟ إنه إنسان ؛ وطبيعته الحيوانية – مهما قويت إرادته – تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغبه فيها وتبعث فيه السخط على حياته ، ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذى صوره « المحاسبى » فى كتابه : « بدء من أناب إلى الله » ، وفى كتاب « الرعاية » تصويراً دقيقاً إلى أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع . يبعث فى نفس الصوفى اضطراباً لا مزيد عليه ، بل يبدأ الصوفى يشك فى نفسه ، وفى قيمته الذاتية ، ويكاد يصل به الأمر إلى أن يعتقد فى تخلى المعونة ؛ أو التوفيق الإلهى عنه ، لأنه ليس أهلا لها : ونجده فى تلك الآونة يبكى ويتألم ويتضرع إلى الله أن يمنحه معونته ، وأن يصفح عنه ، إذا كان قد أخطأ بدون علم منه . ويعترف بأن لا قيمة له فى الواقع ، أمام تلك القدرة العظيمة وكل ما يرجوه : أو يأمله إنما هو : أن يكون عبداً وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته أو توفيقه أو رضاه .

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آونة بعد أخرى على الناحية المادية . تكبح من جماحها ، وتهدئ من ثورتها . حتى تصل إلى الرضا .

ولكن أذلك هو الكمال ؟

لم يقل الصوفى ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضا هنا انقطاع كل الرغبات والشهوات ، أو زوال الآمال والطموح . كلا ! إنما معناه أن تلك الثـورة التى كانت تودى بصاحبنا . وتجعله يعود إلى حياته الأولى هدأت ، وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب فى هذا – حسب رأيه – قوة إرادة أو ذاتية ، وإنما ذلك توفيق من الله ، تلك معونة منه أراد به خيراً : أراد به الهداية والرشد . . .

فماذا يستحق ذلك الخالق . الذى أعانه من غير أن يكون ، سبحانه ، فى حاجة إليه ، والذى هداه من غير أن يكون فى تلك الهداية نفع للخالق ، جل وعلا ؟

إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كليا وجزئيا كان مقصراً .

وليس كل التقصير فى مرتبة واحدة : فذلك تقصير فى حق الإله . الذى منح الحياة . والذى أفاض النعم والذى غمره اطمئنان النفس ، وانتشله من الضلال ، ورفعه إلى مكانة منحه فيها معونته وتوفيقه .

ويبدأ الشك فى خلجات نفسه ، وفيما يبدو : من دقائق الرياء ، ثم ينتهى إلى الانصراف المطلق – فى حدود الإمكان – إلى الذات العليا الكاملة .

ولكن هذه الذات ، مهما فكر فيها ، وتأمل ، يجد دائماً فى نفسه الرهبة منها فيزيده ذلك انصرافا إليها ، وتجد فى نفسه الانصراف إلى الله راحة ، حتى إذا استمر فى ذلك ، منحه الله من فيضه . وتحولت الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق ، ثم إلى رؤية الله فى كل ناحية ، وفى كل جانب ، أو فى كل مكان ، ثم إلى الفناء فى تلك القوة ، التى أخذت عليه سمعه وبصره ، فأعلن أو أسر : ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

أما بعد : فإنى أعتقد أنى ابتعدت كثيراً فى كل ما سبق : فى موضوع : التصوف والشك ، عن النص الآتى ، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق ، لم يكن إلا شرحاً له .

والنص : للسهروردى ، ذكره فى كتابه : « عوارف المعارف » فى نهاية الفصل المعنون : « ماهية التصوف » .

قال السهروردى :

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف . تزيد على ألف ، ويطول نقلها .

زنذكر ضابطاً يجمع جل معانيها فإن الألفاظ – وإن اختلفت متقاربة المعانى ، فنقول :

« الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوب النفس .

ويعينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالتصوف :

قال بعضهم : « التصوف كل اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف » .

والسرفيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعنى أن روح الصوفى منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها .

ولابد للصوفى من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس .

ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى : « الصوفى » جمع المتفرق فى « الإشارات » اهـ .

الإمام الغزالى يرسم طريق المعرفة

١ — إن البحث العقلى فى الإلهيات أمر طبيعى بالنسبة للمفكرين الذين نشئوا فى أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ؛ إنه من الطبيعى أن يوجد فى هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة : ذلك أن الإنسان بفطرته طلعة ، وهو يحاول دائماً معرفة العلل والأسباب ، ويتشوف إلى رؤية المجهول ، إلى الكف عن عالم الغيب .

أما فى البيئات التى فيها نص مقدس ، يحتفظ بنضرته ولا يشك إنسان فى صحته ، فإنه من غير الطبيعى أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب . ذلك أن ثمرة التفكير الإنسانى عرضة للخطأ ، والخطأ فى الذات الإلهية أو فى الصفات الإلهية ، الخطأ فى عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم إذن : هو ألا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلى يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون فى نتائج البحث العقلى من أخطاء .

التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند ذوى العقول الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ سقراط ورفقاؤه يتحدثون عن خلود النفس ، ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ؛ فلا يكاد يستقيم لهم الأمر فى يقين جازم ، ثم « يسكت سقراط ، ويسكت الجميع وبعد هنيهة يقول « سيمياس » : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جدا فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ،

وإما – إن امتنع ذلك – استكشاف الدليل الأقوى والتذرع به فى اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن ، أعنى إلى وحى إلهى[١٢] » .

المركب الأمتن والآمن فى رأى « سيمياس » هو الوحى الإلهى ومعنى ذلك – فى وضوح لا لبس فيه – : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان فى العهد اليونانى نص مقدس صحيح لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقل فى عالم الغيب فإنه فى أغلب الأحايين مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيهات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس متبعين فى ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال فى العقيدة ودون محاولة عقلية للاختراع فيما وراء الطبيعة ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقلية لتحديد مالا يحد وتقييد ما لا يقيد .

٢ – وكان أول انحراف منظم قوى عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذى سلكه واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ومدرستهما . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السوى ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للإسلام وخدمة للمسلمين ، ولكنهم بعملهم هذا حكموا العقل القابل للخطأ فى الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا فى وضع قانون تشريعى يفرض على الله سبحانه وتعالى الفروض . لقد أخذوا يوجبون عليه ، ويمنعون عليه ، فهو سبحانه – على رأيهم يجب عليه أن يفعل كذا . . ويجب عليه ألا يفعل كذا ، وحكموا ، هكذا عقولهم فى الدين وفى الله وما دام عقل كل إنسان يختلف عن

(١٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

عقل الآخر فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لا تكاد تحصر.

وكانت النتيجة لتحكيم العقل فى الدين أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدى فى البيئة الإسلامية.

لم يستسلم المعتزلة استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات الإلهية، كما فعل الصدر الأول، إنما وثقوا بعقولهم الثقة المطلقة، فكان من نتيجة ذلك الشقاق والتفرق.

وحينما بدأ المسلمون فى أوائل العصر العباسى يترجمون الثقافات الأجنبية فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق، ذلك أن يقينهم المطلق فى نصهم المقدس جعلهم يستهينون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق، وكان موقفهم ذلك سليماً كل السلامة، ذلك أن كل فكرة أو كل رأى متصل بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحى إما أن يكون خرافة أو يكون ضلالا عقليًّا، والحياة الجادة لا تستسيغ إنفاق الزمن فى دراسة خرافات أو أضاليل عقلية.

ولكن « المأمون » ومن ورائه المعتزلة، فعلوا ما امتنع جمهرة المسلمين عن فعله، فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق اليونان، فأصبح بذلك الاختراع العقلى أو البحث العقلى أو الابتداع العقلى فى الدين، أرستقراطية عقلية يجرى وراءها الكثيرون.

٣ – ونشأ الفلاسفة، وأخضع الفلاسفة كل شىء لعقولهم، وأخذوا يرسمون القواعد ويقيمون الأدلة، ويبتعدون كثيراً أو قليلا عما فهمه المسلمون عن رسولهم، وعما استشعروه من الروح العامة للإسلام على وجه العموم.

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليونانى وهذا النهج من البحث فى إخفاق متتابع ، وفى فشل مستمر وفى تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم بعضا ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالى الزمن تنهار الآراء وتنشأ آراء أخر لا تلبث أن تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلى لهذه النتائج المنهارة باستمرار ، فإن ذلك لم يقم عظة واعتباراً فى نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية رغم رؤيتهم فى وضوح مآل بحوث سابقيهم المتهافتة .

٤ - ونشأ الإمام الغزالى ، وكان من توفيق الله أن الإمام الغزالى منح طبيعة طلعة ، وذهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكيما ، وأتيحت له تربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى ، وأخذ تفكيره يجول فى جميع المناحى الدينية . فلاحظ أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون فاقتحم لجة هذا البحر العميق ، وخاض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وتوغل فى كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتقحم كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته فى العلم ، ووجد نفسه عاطلا عن علم يقينى ، فأراد أن يبدأ من البسائط وأن يجعل أساسه قويًّا متينا حتى ينتهى إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة فى المحسات فلم تسمح نفسه بالتسليم باليقين فيها وامتحن الثقة بالعقليات فانهارت العقليات[١٣] .

---

(١٣) المنقذ من الضلال .

ومر إذن الإمام الغزالى بتجربة قاسية ، هى تجربة الشك فى الحسيات والعقليات ، فاستمر على ذلك شهرين هو فيهما على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال[١٤] .

ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف[١٥] » .

خرج الإمام الغزالى من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى بصيرة من أمره فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين بالمعرفة ، والمتطلعين إلى الهداية والمستشرفين إلى العلم بالملأ الأعلى .

لقد أراد أن يسلك الطريق الذى يرضى اتباعه الله ورسوله ، أراد أن يرسمه للحيارى والمتطلعين إلى الهدى والشاكين الآملين فى اليقين . وللمسترشدين الذين يريدون أن يعتصموا بحبل الله المتين .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، فرسمه فى ثقة المجرب وفى إحكام الخبير .

إن الأساس الخادع الذى لا يعدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها الكثيرون إنما هو إرادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، فما العقل بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا السراب الخادع الذى غرر بكثير من الظامئين إلى معرفة الغيب .

ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه :

إنه من جانب انصراف عن النص الإلهى إلى العقل .

---

(١٤) المنقذ من الضلال .

(١٥) المنقذ من الضلال .

ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة.

وفى ذلك لاشك صرف للناس عن التأمل فى النص المقدس كمصدر لمعرفة الإلهيات، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة.

وهجم الإمام الغزالى بكل ما يستطيع على هذا النهج، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم: «تهافت الفلاسفة» إلى أن انتهت به الحياة.

ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجرأة، موفقة كل التوفيق، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هو هدم الآراء فى نفسها، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين، وإنما كان هدف الإمام هدم المنهج العقلى الذى استندت إليه هذه الآراء، فخلود النفس مثلا رأى يقول به الإمام الغزالى، ويقول به الفلاسفة، ولكن الإمام حمل معوله وأخذ يهدم بيد قوية المسلك العقلى الذى أثبت به الفلاسفة خلود النفس: فانهارت أدلتهم وتهافتت.

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود.

وهو لم يلتزم فى هذا الكتاب «إلا تكدير مذهبهم، والتغبير فى وجوه أدلتهم، مما يبين تهافتهم[١٦]» ومقصوده «تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم[١٧]».

ويقول: «أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطوراً مذهب

(١٦) تهافت الفلاسفة.

(١٧) المصدر نفسه.

الواقفية ولا أنتهض ذابًّا عن مذهب مخصوص[18] » .

ويقول الأستاذ « بلاسيس » بحق : « إن الغزالى حينما سمى كتابه » : « تهافت الفلاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطىء مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالى يريد أن يقول : إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدى[19] » .

٥ – والمعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها إذن العقل ، والعقل وحده . بيد أن الإمام الغزالى يرى عن تجربة أن وراء العقل طوراً آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما يكون فى المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز[20] ، عن إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز وهناك إذن البصيرة ، وموضوعها الذى ينكشف لها إنما هو الغيب .

وإذا تساءلنا مع الإمام الغزالى عن مراتب المعرفة بالغيب التى هى الإيمان فإننا نجده يحدد ثلاث مراتب :

١ – **المرتبة الأولى** : إيمان العوام : وهو إيمان التقليد المحض .

٢ – **المرتبة الثانية** : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته حسبما يرى الإمام – قريبة من درجة إيمان العوام .

---

(١٨) المصدر نفسه .

(١٩) تاريخ الفلسفة الإسلامية ترجمة الدكتور أبو ريدة .

(٢٠) المنقذ من الضلال .

٣ – **المرتبة الثالثة** : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين .

ولا شأن لنا فى حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهى مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر ، أو أرباب البحث والاستدلال فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار فى منهج البحث ، والإمام الغزالى يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر لا يرى فى منهج المتكلمين ما يؤدى إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفيا عن علم الكلام : « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه المسدود[٢١] .

ويرى فى موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً[٢٢] .

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهى مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق ، إنها المشاهدة بنور اليقين .

٦ – ولكن مشاهدة ماذا ؟ ويقين فى ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟ إنه – إذا أردنا الإجمال – الغيب .

---

(٢١) الإحياء ص ١٩٨ .

(٢٢) الإحياء ص . ٨٧ .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع العارف من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، وتحصل المعرفة بالله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله ، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ، ومعنى الوحى ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومعرفة الآخرة ، والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط والميزان ، والحساب ومعنى قوله تعالى :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ .

ومعنى لقاء الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ، ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفسيره[٢٣] .

ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته ، دون جدوى ، المتكلمون والفلاسفة .

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه .

---

(٢٣) الإحياء ص ٣٤ ، ٣٥ .

لقد اختلفوا فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن المعرفة .

وبعضهم يدعى أموراً عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل .

وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف . لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح فى معرفة الغيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الغطاء حتى تتضح للإنسان جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن فى جوهر الإنسان(٢٤)

أهذا ممكن حقًّا فى جوهر الإنسان؟

إنها دعوى من الإمام الغزالى تحتاج إلى إثبات ، وهى دعوى ينكرها الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالى يرى أن الدليل القاطع ، الذى لا يقدر أحد على

---

(٢٤) الإحياء ص ٣٤ ، ٣٥

جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

والثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور فى المستقبل وإذا جاز للنبى ﷺ ، جاز لغيره ، إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أوبتعبير آخر أن يقر بباب للقلب ينفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام والنفث فى الروع والوحى [٢٥] .

والإمام الغزالى يتشبث بالرؤيا ، كبرهان ودليل ، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل ، ويردد ذلك فى كثير من كتبه ؛ إنه يتحدث فى المنقذ عن النبوة فيقول : « وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاه نموذجاً من خاصية النبوة وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عن التعبير ، وهذا ولو لم يجر به الإنسان من نفسه ، وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب ، لأنكره وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة من أسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

---

(٢٥) الإحياء ص ٣٨٩ .

فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[٢٦] .

ولكن الغزالى لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتى بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات ، أما الشواهد - فيما يرى - فهى قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٢٧] وقوله سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾[٢٨] . قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات ؛ وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه . . . ﴾[٢٩] ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة إن النور إذا قذف به إلى القلب اتسع له الصدر وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمتى محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

والمحدث هو الملهم ، والملهم هو الذى انكشف له الحق فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجية .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾[٣٠] ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ، يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾[٣١] ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو

(٢٦) المنقذ ص ١٣٤ .
(٢٧) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .
(٢٨) سورة الأنفال آية : ٢٩ .
(٢٩) سورة الزمر آية ٢٢ .
(٣٠) سورة التغابن آية ١١ .
(٣١) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

على نور من ربه ﴾ ؟

ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسيًّا ، أو عقليًّا ، وإنما هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وعلمناه من لدنا علما[٣٢] ﴾ .

كيف تنجلى البصيرة ؟ كيف يتأتى الكشف والإلهام والنفث فى الروع ؟ كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى.

ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ .

فليس على العبد الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

وهو بفعله يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار فى استجلاب هذه النفحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق

(٣٢) الإحياء ص : ٤١ ، ٤٣ .

فى قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفى من الله تعالى فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين (٣٣) .

٧ – هذا النهج الذى رسمه الإمام الغزالى لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للفرد فى خاصة نفسه ، وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدين .

ولتوضيح ذلك بعض الإيضاح ، ولذكر بعض الآثار التى كانت لهذا النهج نذكر ماكتبه الدكتور محمد إقبال فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » عن الإمام الغزالى .

يقول الدكتور إقبال : « على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التى نهض لها الغزالى تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها فى ذلك مثل الدعوة التى قام بها «كانت » فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، ففى ألمانيا ظهر المذهب العقلى لأول عهده حليفا للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيًّا ، فكان الطريق الوحيد إذن أن تنمحى العقيدة الدينية من سجل المقدسات وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة فى فلسفة الأخلاق ، وبذلك مكن المذهب العقلى من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال فى ألمانيا عندما ظهر «كانت » وكشف كتابه المذهب العقلى من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفى الذى اصطنعه الغزالى – على تطرفه بعض الشىء – قد انتهى إلى النتيجة نفسها فى العالم الإسلامى ، إذ قضى ذلك المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو على الرغم من ضحالته ، وهو المذهب الذى سار فى نفس الاتجاه الذى اتجه إليه المذهب العقلى فى ألمانيا قبل «كانت » .

---

(٣٣) الإحياء ص ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ .

غير أن هناك فارقا هاما بين الغزالى و «كانت» . فإن «كانت» تمشى مع مبادئه تمشيا لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة . أما الغزالى فعندما خاب رجاؤه فى الفكر التحليلى ولى وجهه شطر الرياضة الصوفية وألفى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه ، وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزقية[٣٤] » .

(٣٤) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ١٠ ، ١١ .

مشكلة المعرفة والصوفية (٣٥)

١

يتسم التاريخ – سياسيًّا كان أو فكريًّا – بفترات ، تبدو فيها ، الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية ، تتركز فى شخص ، أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم فى مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان – قوة الشعب الذى يتبع التقاليد – وقوة المصلحين النابغين – فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، فى قليل أو كثير.

ومهما يكن من شىء ، فإن عظماء الرجال – على أى وضع قضوا نحبهم – لا يتركون هذا العالم ؛ إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحى أبد الدهر.

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه فى ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطرا ، وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجه إليه السيوف المهندة ، فيدافع ويهاجم ، ويغلب أو يُغلب ، ويترك على كل حال أثراً مؤثراً.

٢

ونشأ المحاسبى ، وفى العالم الإسلامى قوتان هائلتان تصطرعان :

١ – أهل السنة ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل.

---

(٣٥) هذه الكلمة كتبتها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للمحاسبى وهى ، وإن كانت قد كتبت فى مناسبة خاصة. فإنها من حيث الفكرة. عامة. فيما يتعلق بالمعرفة الصوفية.

٢ – المعتزلة ولهم ممثلوهم فى البصرة ، والكوفة ، وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة ، وأهل السنة : صراع طبيعى لا يخلو من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين .

إنه النزاع الأبدى بين الذين يقولون :

إن الدين نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية ، والذين يقولون :

إن الدين نص : يفسره العقل ويوضحه .

ويظن بعض الناس – للوهلة الأولى – أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة .

فالإنسان إما : نصى ، وإما عقلى : ولا يحتمل الأمر حلا ثالثاً .

٣

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث ، أو بتعبير أدق ، ليذكر بهذا الحل الثالث :

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصا فى الرد عليهم ، سماه : « فهم القرآن » .

لقد رأى فى نزعتهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم : تحكم العقل فى القرآن ، وتجعله يسيطر على النص ، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل ، لا الكتب المقدسة .

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل فى دفاعهم المجيد

عنه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأييده منطقيًّا وعقليًّا ، فإنه مما لا شك فيه . أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما انبهم .

لابد إذن أن يخضع العقل للنص .

ومذهب المعتزلة ، إذن لا يسير فى عالم : « ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب .

٤

هناك ، إذن إفراط وتفريط .

والعبودية الحقة – فيما يرى المحاسبى – : هى النهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة .

ودخل المحاسبى المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حقة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكلياته .

التقوى والعلم ، إذن : كانا سلاحه فى المعركة .

واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبى ، وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان المحاسبى ينهج فى درسه نهجاً آخر غير الطريق العادى التقليدى .

كان يتحدث فى الإخلاص ، وفى الورع ، وفى الزهد ، وفى الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث فى محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه .

وكان يتحدث فى هيبته وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ، فترق قلوبهم ويعاهدون على الاستقامة .

٥

وملأت سمعة المحاسبى أرجاء بغداد ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد كلما كثر خصومه وشانئوه ! !

ولكنه كان يسير فى طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن يكون الله راضياً عنه !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حسًّا يخطئ ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاءة وروح صاف .

٦

واستمرت الخصومة بين :

النصيين ، ويمثلهم الإمام أحمد .

والبصيريين ، ويمثلهم الإمام المحاسبى .

والعقليين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت فى كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة المحاسبى ، وتمثلت خير تمثل فى الإمام الغزالى ، ثم فى بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها فى أسلوب جديد وتعبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » الذى توفى منذ سنوات .

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت فى الإمام : « ابن تيمية » الذى وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلا قويًّا .

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حينا آخر ، حتى كان جمال الدين الأفغانى ، فدفعها قويا إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل فى نشرها . ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى الأصيلة التى كانت قبل ابن تيمية والتى لا يمثلها ابن تيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المراغى » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » .

وفكرة « الإمام محمد عبده » تتمثل فيها حقيقة ، لا فى الشيخ رشيد رضا كما يظن كثير من الناس .

٧

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان :

فبعضهم ، واقعى يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلى أو اعتزالى .

وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى النزعة ، فهو بصيرى أو صوفى .

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر فى بنى البشر ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين على أمل أن يقضوا على هذه الاتجاهات قضاء تامًّا .

وبالله التوفيق .

الفصل الرابع

قضية التصوف

- إنكار التصوف .
- تحديد موطن النزاع .
- المشاكل التى يراد حلها .
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- الطريق إلى المعرفة .
- طريق البصيرة طريق الصواب .
- التصوف أرستقراطية .
- تفاوت الناس فى فهم الدين .
- التصوف قوة .
- التصوف ليس دخيلا على الإسلام .
- التصوف فى العصر الحديث .

إنكار التصوف

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب . ذلك أن النزاع بين « الفقهاء » و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ، ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا حرباً لا هوادة فيها .

والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً للآراء ، ويرون أنه وحده الهادى إلى الرشاد .

ولم يهدأ الصراع بين « الصوفية » وغيرهم – فقهاء كانوا أو عقليين على مر الزمن :

ما هى مآخذهم على « التصوف » ؟

أولا : يرى « الفقهاء » – ويشاركهم فى هذا الرأى كثير من الباحثين : أن « التصوف » دخيل على الإسلام : إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى ، والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة .

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته وإرادته ، موجودة فى القرآن الكريم ، فى وضوح لا لبس فيه فإذا ما تركناه ، وذهبنا نلتمسها فى متاهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل فى مجاهل الطريق .

ثالثاً : « التصوف » ليس فى متناول الجميع ، فهو إذن « أرستقراطية » تتنافى مع روح الإسلام « الديمقراطية » . .

ولأن « التصوف » ليس فى متناول الناس جميعاً ، فهو إذن تكليف بما

لا يطاق والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ ، والجهاد باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .

أما العقليون : فإنهم يرون أن الله – سبحانه وتعالى – منحنا العقل لنهتدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه – كما يفعل « الصوفية » – فقد احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اليقين فى محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله – عقليًا – ويرون فى براهينهم غناء ودقة ، ويقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله فى القرآن على استعمال العقل ، والآيات التى تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هى أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » و « الصوفية » وأما ما عداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التى يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإنا نضرب عنها صفحاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » و « الصوفية » الحقيقيين .

تحديد موطن النزاع

ونريد الآن أن نبين – فى إيجاز – بعض ما يراه « الصوفية » فى هذه الاعتراضات ، لنتبين الحق فى هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذى يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج – فى نظر الصوفية – إلى كد الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة فى نظر الصوفى ، وإذن فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هى انتقاص من جلاله سبحانه ، فمتى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية – شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة – لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب فى إلحاح ، وفى قلق ، وفى تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله ؛ النفس الإنسانية هكذا خلقت : فكلما منح الله الإنسان عقلا كبيرا ، وذكاء جادا ، ونفسا طلعة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل فى البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحدانيته ، وكونه عالماً ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هينة .

لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك ولن يتأتى لها – عن رغبة أو رهبة – أن تقتصر على ذلك ! !

المشاكل التى يراد حلها

كيف خلق الله العالم ! أخلقه من العدم المطلق ، فكيف إذن ينتج شىء من لا شىء ؟

إن شيئاً من لا شىء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته .

أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله والمادة .

والله لا نهائى الذات : ومقتضى هذا ألا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل شىء وفى كل شىء . وبهذه النظرة يخاطب « شلى » الله – سبحانه وتعالى – فيقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلاعبها النسيم ليست إلا بضعة منك : (جزءا من أجزائك) كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية » .

« ويقول : إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان ، بها يحيا كل موجود ، وهى هو »[1] .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضا ولا سماء ، ولا برا ولا بحراً ، فهى ، إذن ، محدودة ، لأنها ما عدا هذا الكون .

---

(١) عن مبادئ الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد أمين » .

ثم إن الله – زيادة على ذلك – لا يمكن أن يوجد فى كل مكان . والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟

أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟

أيسيطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه فى حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقا أن نفهم أن الله فى حاضر لا يزول ؟ مع بداهة شعورنا بالماضى والحاضر والمستقبل .

والله عالم – كما قلنا – أهو عالم بذاته فحسب لأن علمه فى شرفه وسموه وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك إلا ذاته ، سبحانه وتعالى .

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات . لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، الجزئيات ، على الرغم مما فى الجزئيات من نقص وتفاهة ، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر .

والله قادر : أهو قادر على كل شىء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن

قدرته تتعلق بالمستحيل – كما يقول علماء الكلام – معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال ؟

والله مريد :

أيريد الخير والشر؟ فلم الحساب ، والعقاب أو المثوبة إذن ؟

وكيف يريد الشر؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر فى بنى البشر تعتبر نقصاً .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر فى هذا العالم بالرغم عنه ؟

أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريداً ؟

أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟

إن رضاءه بالشر يتنافى مع كماله .

وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟

أيحب الله أن يعصى؟ أم أنه يعصى بالرغم عنه ؟

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لا نهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة لا نهائية ورحمته وسعت كل شيء ، وهو جبار ذو جبروت لا نهائى ولطيف لاحد للطفه :

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداهة تقضى بأن تنفى كل صفة منها وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقا : أن ما يريد أن يراه الشاعر « إسماعيل صبرى » حينما خاطب الله قائلا :

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى   غضب اللطيف ورحمة الجبار

أيمكننا أن نرى حقا غضب اللطيف الذى لا نهاية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذى لا نهاية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل إسماعيل صبرى محق إذن حينما يقول :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك فى السماوات العلا والأرض شبراً خاليا للنار

وكيف يلقى الله بالمعرفة إلى رسله ، بأى لغة يخاطبهم ، وكيف ينزل « الملك » على رسول الله ، فيراه ويسمعه فى حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه ؟ !

ومن أين يأتى « الملك » ؟ ، أمن السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله فى كل مكان !

إن مشكلة الوحى ، هى الأخرى ، من المشاكل التى استنفدت الكثير من المدد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياة أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ، ونلعب ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه فى حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة وطاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة ؟

أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح ائتلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الذاهبين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة فى دقة دقيقة ، وفى تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسى وروحانى ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحانى بحت .

وما هدف الله فى إيجاد هذا العالم ! أخلقه ليعبده : ﴿ وما خلقت الجن

والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، أم خلقه ليعرف كما قيل : «كنت كنزاً مخفيًّا فخلقت الخلق ، فبى عرفونى ؟ » .

إن كمال الله غنى عن أن يكون فى حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾ .

أخلق الله العالم اعتباطاً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباطا : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟ ﴾ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً !

والحكمة : إنما هى تعبير عن الغرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التى أثارت العقل ، وجعلته ينشط إلى البحث والنظر ، ويعدها من المشابه . قال رحمه الله فى رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم ، أو فى الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر .

وعز ا إليه أمورا يوجد ما يشبهها فى الإنسان : كالاستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين .

ثم أفاض فى القضاء السابق ، وفى الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى

الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة

هذه المشاكل لم أخترعها اختراعاً ، ولم أبتدعها ابتداعاً ، وإنما هى موجودة تصادفك فى الفلسفة ، وتصادفك فى علم الكلام ، وهى موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهى بعض من كل :

كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عنها ؟ ما هو السبيل الصحيح للاطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحدس والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكمياء ، أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقا عن ذلك ؟ أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة ، واختراق حجب ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى ؟

وعقل من ؟ أعقلى أنا ؟ أنحتكم إلى عقلى وهو – فيما أرى – ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصبية ، أيرضى بعقلى حكماً ؟ أم نحتكمْ إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما ترى ناضج ؟

وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بعصبية .

ولكن إمام « الشيعة » – بحسب نظرهم – معصوم ، وهم يلجئون إليه فيما

ادلهمّ من الأمور ، وسوف لا يرضون بغير حكمه بديلا ، وهم ملايين عدة ، أنستلهمهم الرشد فى هذه المسائل ؟

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، إنه على الأقل – فيما يرون – معصوم فى الأمور الدينية ، ورأيه هو الفيصل فى كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضى آراؤه البوذيين ، أو المسلمين ، أو اليهود ؟

هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أم من اختصاص أصحاب العمائم ؟

أحلها محصور فى السوربون ؟ أم هو من اختصاص الأزهر .

إن هذه المسائل « شغلت الرءوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلانس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمائم ، إلى لابسى القبعات السود ، إلى أرباب الضفائر ، إلى ألوف تصببت عرقاً من البحث »[٢] .

إلى أى هؤلاء نلجأ فى حلها ؟ لقد :

تحيرت البدو ماذا تكون وضلت بوادى الظنون الحضر

قد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص .

أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » .

وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أو إلى عقل « ديكارت »

هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسى ؟ أو إلى عقل « فيلسوف » مثالى . . ؟

أنلجأ إلى علماء الكلام ؟ وأيهم ؟ : أللنظّام ، وقد كان حاد الذكاء متوقد الذهن ، صاحب منطق وجدل ؟ . . إن « ابن تيمية » لا يرضى لنا ذلك

---

(٢) من مبادئ الفلسفة . ترجمة « الدكتور أحمد أمين » .

« وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع ، حاد الذكاء ، متوقد الذهن فهل نتبعه ؟

أم نتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث ؟ فهل نتبع « الشيخ محمد عبده » ، أو « الشيخ عليش » ؟ إن كلا منهما رجل فاضل ، واسع الاطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان فى شىء من آرائهما سواء فى ذلك الوسائل والأهداف ، فإلى عقل أيهما نحتكم ؟ . .

وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة حينما يقول : « إن عقل الإنسان مركب تركيبا يؤسف له فإنه مع شغفه بالبحث فى مسائل لا تدركها حواسنا ، لم يستطع أن يكشف عن معمياتها » .

أما الإمام « الرازى » فإنه يقول فى عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا » .

ويقول فى وصيته التى أملاها على تلميذه « إبراهيم بن أبى بكر الأصفهانى » : « ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم » .

والإمام « الرازى » هذا ، هو الذى يقول فيه صاحب « وفيات الأعيان » : فاق أهل زمانه فى علم « الكلام » و « المعقولات » وعلم « الأوائل » .

وليس « كانت » وليس الرازى إلا مثلين من أمثلة عديدة تتلاقى فى النهاية مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو حينما يلجأ إليه قائلا :

يارب أهّلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار

ومع ذلك فهذه المشاكل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس الدينى المرهف ، وتؤرق أعينهم ، وتشغلهم -- مصبحين ممسين --. ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم -- عليه السلام -- إذ قال :

﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟

قال : أو لم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . . ﴾ .

فما هى الوسيلة التى يروون عن طريقها غلتهم ، وتشفى صدورهم ، وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ، والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده : عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً عن الوصول إلى حلها ، وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل ذى عينين : إن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل البتة إلى نتيجة حاسمة فى أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويكفر رجاله بعضهم البعض :

إلام نتجه إذن ؟

إننا إذا نفضنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما وراء الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقارا له ، لأننا نستعمله معترفين بفضله فى ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه فيما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه فى غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين ! ! وتكشف الطريق الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد .

وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فيم ادلهم وخفى ، فماذا نجد ؟

نجد أن القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يرشد فى مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ، وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك النوع فى أبسط صورة وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يحدثنا فى سورة يوسف عن عدة رؤى :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

ويعتقد والده فى رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة .

﴿ يا بنى ، لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ .

وحينما سجن العزيز يوسف ﴿ ودخل معه السجن فتيان .

قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً .

وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ﴾ .

وذهبا إلى يوسف واستنبآه الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين :

﴿ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ . ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك :

﴿ وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع

سنبلات خضر ، وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فيرى أن نفس « الملك » تكشف لها المستقبل ، ورأيت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه فى صورة رمزية ، ويعبر « يوسف » الرمز فيقول : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون .

ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون .

ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ .

ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً .

ذكر « يوسف » أباه برؤيته السابقة وقال : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًّا ﴾ .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة .

ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه – وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًّا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب – لأنكر وأقام البرهان على استحالته وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها

فبألا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة[٣] .

والنبوة ، هى الأخرى ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقاً ، وليست استقراء ناقصاً أو تاما ، وليست قياساً من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله .

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية . إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعنى الملائكة .

والقرآن يحدثنا أيضا فى أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد الصالح الذى أخذ سيدنا « موسى » فى البحث عنه جهده ، حتى وجده وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

﴿ إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ .

وألح « موسى »

وقبل العبد الصالح – فى النهاية – على شروط اشترطها .

ولم يكن فيها رفيقاً « بموسى » أو عطوفا عليه . .

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ، ولا مع المنطق ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شىء ، ولم يجد موسى إلى الصبر سبيلا ، ولم يجد العبد الصالح – وقد أخل موسى بالشرط –

(٣) الغزالى فى المنقذ من الضلال .

مناصاً من أن يعلنها صريحة واضحة ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

﴿ وإذ قال موسى لفتاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه :

آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا .

قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا

قال : ذلك ماكنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما .

قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا .

قال : إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا .

قال : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .

قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ،

قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا .

قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله .

قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا .

قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .

قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا .

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه

قال : لو شئت لتخذت عليه أجرا .

قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا .

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا .

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما .

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا ﴾[٤] .

هنالك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تزكية النفس ، وتطهيرها والالتجاء إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ،

(٤) سورة « الكهف آيات : ٦٠ - ٨٢ .

وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب

ولكن الكثيرين يشكون فى هذا الطريق — طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر — الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون فى إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة ، والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة ، أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من المعترضين ، قاله فى ساحة « السربون » لأساتذة الجامعة . وعلماء باريس ، حينما دعوه ليحاضرهم فى « ما وراء الطبيعة » :

« سيتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟

إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان :

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ إنه لمن الغريب حقا أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن

يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه – فى قليل أو كثير – ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » اهـ .

وهذا الرأى نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين ، فى كل عصر :

إنه رأى الفارابى ، ورأى ابن سينا ، ورأى الشيخ محمد عبده .

يقول الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد :

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال : حال الاتصال فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألىء فى بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة : كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار »[٥] .

التصوف أرستقراطية

١ — مما سبق نتبين : أن « الصوفية » يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضا .

والبصيرة — التى سبيلها تزكية النفس — وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها .

ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة . و« الصوفية » أقل الناس ، تأثراً بالعواطف ، على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحياناً كلمة القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه فى الله — وهو المقصود بـ« الذكر » — وعر المسلك ، ولذلك كان طريق التصوف طريقاً خاصا لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا إلى الشروط التى يجب توافرها فى السالك ، علمنا أن النفوس الجديرة بسلوك هذا الطريق من الندرة بمكان .

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

---

(٥) رسالة « الشيخ محمد عبده » فى التوحيد ط صبيح ص ٦١ — ٧٠

« التصوف » إذن : « أرستقراطية » .

وهذا اعتراض لا قيمة له : فـ « التصوف » حقًّا « أرستقراطية » .

وطبيعة الأمور تأبى إلا أن يكون « أرستقراطية » ؛ إنه نظام الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفاً ، وذكاء حادا ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

٢ – وإذا كانت « الديمقراطية »معناها التساوى فى كل شىء ، فهى أسطورة من الأساطير : فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات فى الغاب ، ولا يوجد بين بنى آدم فى المدن أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ، ولا فى قوتهم الجسمانية ، ولا فى ذكائهم ، ولا فى دهائهم ومكرهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم . . ونظام « الطبقات » الذى يسود فى « الهند » ، والذى ننتقده ونشنع عليه إنما هو النظام الواقع فعلا فى جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته . والمسود بغبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ، وهو « فيلسوف » نابه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففى « جمهوريته » : طائفة « الإنتاج » وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ،

والشهوات الغلابة .

وطائفة « الجند » ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق .

٣ - « التصوف أرستقراطية » وهو فى ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذى يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعا لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة ، أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : على حد تعبير الرسول ﷺ - ومعادنهم ثابتة لا تتغير فـ « خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبى وفيهم المعدن الفضى ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول فى رسالة التوحيد :

« مما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ولا شبهة فى أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالا يحصره العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريبا ، فيسعى إليه ، ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذى لا ينازع ،

والظاهر الذى لا يجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم بادئ الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ، ظاهرا فى كل أمة إلى اليوم »[٦] .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء إلخ . قال تعالى :

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٧] .

لا يدعو « الصوفية » إلى أن يكون الناس جميعا متصوفين . و « جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد » .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى الاستفاضة ، بيد أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعا إلى « التصوف » فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم يريدون أن يسود بين جنبات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة يجعل الناس إخوانا متعاونين ، متكاتفين .

---

(٦) رسالة التوحيد (للشيخ محمد عبده) ط صبيح ص ٦٧

(٧) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

تفاوت الناس فى فهم الدين

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو « التصوف » فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان : فهو اعتراض لا ينسجم مع النزعة العامة عند « الصوفية » .

إن « الصوفية » لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة « الإنتاج » ناجية .

ونحن جميعا نعلم أن التحقيق الإسلامى ليس بدرجة واحدة عند جميع الناس : إن إيمان « أبى بكر » – رضوان الله عليه – ليس كإيمان غيره ، والرسول – ﷺ – يمثل تفاوت الطبائع فى الاسترشاد فيقول :

« إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير » .

وكان منها أجادب أمسك الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا .

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

التصوف قوة

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة : عندهم فى سبيل الله ؛ يبذلونها عن رضاً لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التى لم تفتحها الجيوش الإسلامية .

وقد كان لهم الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى (أندونيسيا) وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التى قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية : مكرسا حياته لصد غارة الأعداء .

والعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ليس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول « ابن سينا » عن الصوفى « العارف الشجاع » وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يتمارى فى ذلك اثنان .

التصوف ليس دخيلا على الإسلام

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، فيكفينا فى الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء .

أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف مسلم صوفى .

والثانى : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » الذى يعتبر أعظم باحث فى « التصوف » بين المستشرقين فى العصر الحاضر :

والثالث لصاحب كتاب « التبصير فى الدين » وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة :

ومؤلفه هو : « الإمام الكامل ، الفقيه الأصولى المفسر » الإسفرايينى .

ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون جزءاً جوهريا من الدين الإسلامى ، إذ أن الدين يكون ناقصا بدونه ، بل يكون ناقصا من جهته السامية ، أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التى تذهب بـ« الصوفية » إلى أصل أجنبى ؛ « يونانى » أو « هندى » أو « فارسى » ؛ وهى معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ؛ ذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور[8] .

ويقول الأستاذ « مسينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول .

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها « متصوفة » المسلمين « نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف

---

(٨) انظر كتاب : الفيلسوف المسلم ، مكتبة الأنجلو المصرية .

المسلمين على تلاوة القرآن ، والحديث وتقربهما وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير فى الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » ، و « الروافض » ، و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ؛ والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد[٩] .

تعليل الإقبال على دراسة التصوف فى العصر الحاضر .

---

(٩) التبصير فى الدين . (لأبى المظفر الإسفرايينى) المتوفى سنة ٤١٧ هـ . ط السيد عزت العطار ١١٨ .

التصوف فى العصر الحديث

لقد كان أتباع « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان » فى القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس — شرقيون وغربيون — منصرفين عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل مشكلة فى الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة الصوفية ، فما الذى غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين :

« ما الذى غير اتجاه العقل الإنسانى فى القرن التاسع عشر؟

الذى غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيرا فى دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

لانريد أن نقول : إن العلم أخفق فى تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره . كلا بل نريد أكثر من ذلك . . نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادة إلا أنها حركة مجهولة ، فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة فى « الأثير » . . وما « الأثير » ؟ . . شىء كلا شىء ، وليست له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادى لا يعرف المادة إلا فى هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث

استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء لأنه مقيد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعلمها الفكر ؟

كلا -- أيضا -- لأن الفكر محدود ككل شيء فى الإنسان .

فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير .

لابد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هى المعرفة التى يتعاون عليها الحس ، والفكر ، والإلهام »[١٠] .

* * *

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية وغيرهم من نزاع ، وإنى لعلى يقين من أن نظرة الإنصاف ستزيل ما فى نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع -- فى رحاب المودة التى يدعو إليها الصوفية -- إخواناً فى الله متحابين .

---

(١٠) حديث للأستاذ العقاد فى الإذاعة المصرية .

الفصل الخامس

الإمام الغزالى

- حياته
- نبذة عنه بقلم أحد معاصريه
- كتبه
- نصوص تبين منهجه

حياته

هو : « أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى » . ولد « بطوس » : من إقليم « خراسان » عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .

وكان والده – كما يقول « السبكى » فى طبقاته – يغزل الصوف ، ويبيعه فى دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه : « أحمد » ، إلى صديق له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير ، قائلا :

« إن لى لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتنى ، فى ولدىّ هذين » .

وأشرف عليهما الوصى الصالح ، وعلمهما الخط ، إلى أن فنى ذلك النزر اليسير ، الذى كان قد خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما ، فقال لهما :

اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لى فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت ، يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب فى سعادتهما ، وعلو درجتهما .

وكان « الغزالى » يحكى هذا ، ويقول :

طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله[1] .

(١) من كتاب « إتحاف السادة المتقين » بشرح « أسرار إحياء علوم الدين » ، للعلامة « محمد بن محمد الحسينى الزبيدى » .

وفى عهد الصبا فى « طوس » أخذ طرفاً من الفقه ، على « أحمد الراذكانى » ، ثم سافر إلى « جرجان » ، ليأخذ عن الإمام « أبى نصر الإسماعيلى » فسمع منه ، وكتب عنه ، ثم عاد إلى « طوس » ، فمكث بها ثلاث سنين ، يتأمل ويتدبر ، ويحفظ ما حصله « بجرجان » .

وبعد ذلك ، قدم « نيسابور » ولازم إمام الحرمين ، حتى برع فى المذهب .[2]

والخلاف والجدل ، والأصلين[3] ، والمنطق ، وقرأ الحكمة ، والفلسفة ، وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاواهم . . . »[4]

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه : « بحر مغرق » .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ - ١٠٠٥م) خرج « الغزالى » إلى العسكر ، قاصداً الوزير : « نظام الملك » ، « إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ، ومحط رحالهم ، فناظر الأئمة العلماء فى مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، فتلقاه الصاحب بالتعظيم ، وصار اسمه فى الآفاق ، واشتهر فى الأقطار .

ولما أصبح بهذه المثابة ، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد ، وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها ، فقدمها فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك . واستقبل فى بغداد ، استقبالا حافلا فقد سبقته شهرته إليها .

---

(٢) مذهب الشافعى رضى الله عنه .

(٣) يعنى أصول الدين وأصول الفقه .

(٤) شرح إحياء علوم الدين للزبيدى .

وفى بغداد نال من الاحترام ، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء ، على حد تعبير « السبكى » وصار – على حد تعبير أحد معاصريه ، وهو « عبد الغافر الفارسى » – بعد إمامة خراسان ، إمام العراق .

* * *

ثم ماذا ؟

ها هو ذا ؛ قد بلغ قمة المجد ، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة : أتته من جانبها المالى .

وأتته من جانبها الذى يتصل بالشهرة ، وذيوع الاسم .

وأتته من جانبها الذى يتصل بالجاه والنفوذ ، حتى إنه ليذكر أن من قرب من الولاة :

«كان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب علىّ ، وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم[٥] » .

واستمتع الإمام بكل ذلك فترة ، لعلها لم تكن طويلة الأمد . . .

ثم ماذا ؟

ثم كانت انتفاضته العارمة التى انتزعته قسراً وفى عنف ، من وسط النعيم والأبهة والمجد . . . إلى حيث الانزواء والعزلة . لقد كان ينعم فى الترف الدنيوى ، وها هو ذا الآن ذاهب إلى الله . لقد كان يرفل فى رياض من النعيم المادى ، وها هو ذا الآن فار إلى ربه ، ومهاجر إليه .

ماذا حدث ؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلى فجأة ودون مقدمات ؟

---

(٥) المنقذ من الضلال .

لا شك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية ، كانتفاضة سيدنا « عمر ابن الخطاب » التى اقتلعت – فى دقائق – جذور الشرك من أعماقه ، وغرست – فى دقائق – أصول التوحيد فى سويداء فؤاده ، فآمن فى لحظة وأناب :

لقد كان الإمام « الغزالى » ، طيلة حياته طلعة ، يجرى وراء المجهول ، وكان كما يقول عن نفسه :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى – منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين – أقتحم لجة هذا البحر العميق [٦] ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم على كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته .

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه ، لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته » .

---

(٦) يقصد بحر المعرفة .

ويقول أيضاً :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبي وديدني – من أول أمرى وريعان عمرى – غريزة ، وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلّتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا » .

ومن أجل ذلك يقول عنه « دى بور » .

« وقد وهب هذا الفتى عقلا متوثباً ، قوى الخيال ، لا يرضى بأى قيد يغله » .

ولكن هذا النهم فى البحث ، وهذا الاستقصاء فى الدراسة ، وهذه العقلية الجريئة النافذة ، كل ذلك : انتهى به إلى الشك ، فى ما يرى ، ويسمع ، ويقرأ وفى ما يقول ويعتقد .

وكان هذا الشك عنيفاً ، حادا ، شاملا ، عامًّا ، طيلة شهرين هو فيهما : « على مذهب السفسطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » .

ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال ، لا بنظم دليل ، وترتيب كلام ، « بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر » .

* * *

زال ذلك الشك ، ليحل محله شك آخر ، هين سهل . وهذا الشك الثانى إنما هو شك فى طريق النجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث ولكن ما هى الكيفية التى يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة ؟

هذه الكيفية ، إذا وضحت : تحدد النهج الذى يجب أن يسير عليه .

ودراسته المستفيضة : بينت له أن كل فريق من الباحثين – على كثرتهم

واختلافهم – « يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون « .

أى هذه الأحزاب محق ، وأيها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الإمام « الغزالى » نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسهله ، أن يحصر أصناف الطالبين للحق ، ويدرسهم صنفاً ، صنفاً ، أو فرقة ، فرقة .

وانحصرت الفرق عنده فى أربع :

١ – « المتكلمون » : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .

٢ – « الباطنية » : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ – « الفلاسفة » : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ – « الصوفية » : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة » اهـ .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن ؛ لا يعدو هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام » الغزالى » عن ساعد الجد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشفى غلته ، ذلك أن أكثر حوض المتكلمين إنما هو :

« فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا » .

وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة فى أقل من سنتين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه ، يعاوده ، ويردده ، ويتفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتخيل .

فرأى أن مجموع ما صح ينحصر فى ثلاثة أقسام :

١ – قسم يجب التكفير به .

٢ – وقسم يجب التبديع به .

٣ – وقسم لا يجب إنكاره أصلا .

أما هذا الذى لا يجب إنكاره فمثل :

١ – العلوم الرياضية .

٢ – المنطقيات .

٣ – العلوم السياسية .

٤ – العلوم الخلقية .

٥ – « أما الطبيعيات » فلا إنكار فيها إلا فى مسائل معينة ، ذكرتها فى كتاب « تهافت الفلاسفة » وأكثر أغاليطهم إنما هى فى :

٦ – الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا ، يُجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .

وانصرف الإمام الغزالى عن الفلسفة ، لأن العقل :

« ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات » .

فأخذ يدرس مذهب التعليمية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » .

وقد نقد الإمام « الغزالى » مذاهبهم فى قوة ، وفى عنف ، وألف كثيراً من الكتب فى الرد عليهم .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، « لأبي طالب المكي » ، رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » ، « والشبلي » ، « وأبي يزيد البسطامي » ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم اهـ .

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالإنسان إلى النور ، والإشراق ، واليقين ، إنما هو الجانب العملي ، وهذا النوع يحتاج إلى الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وذلك يقتضي الإعراض عن المال والجاه ؛ والشهرة وذيوع الصيت ، ويقتضي الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملا إلى الله فارًّا مهاجراً إليه .

وكان الإمام « الغزالي » إذ ذاك منغمساً في المال ، والجاه ، والشهرة . وبدأ الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر .

ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على صحته ، فضعفت قواه ، ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري فالتجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ،

وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب »
اهـ .

* * *

تلطف الإمام « الغزالى » بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، مظهراً عزم الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام . . وسار يحدوه الأمل العذب فى المعرفة ، ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح ، يتفضل الله به عليه ، كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .

حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من سنتين ، لا شغل له إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يعتكف فى منارة مسجد دمشق ، طول النهار ، ويغلق بابها على نفسه .

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه ، ثم سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته ، مشتغلا بالتفكير .

ولقد كان ، فى حله وترحاله مؤثراً العزلة ، حريصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر . . ودام ذلك كل ما يقرب من عشر سنوات ، انكشف له فى خلواته فى أثنائها ، أمور لا يمكن إحصاؤها : وأفاض الله عليه من النور الإلهى ، وغمرته ألطاف الله ، وترق به الحال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، وكان كتاب الإحياء من ثمار هذه الفترة .

نبذة عن الإمام الغزالى

بقلم أحد معاصريه(٧)

« محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالى » ، حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً ، أخذ طرفاً فى صباه بطوس ، من الفقه على الإمام « أحمد الراذكانى » ، ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين فى طائفة من الشبان من طوس ، وجد ، واجتهد حتى تخرج فى مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، فى أيام إمام الحرمين ، وكأن الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ويجتهد فى نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ فى التصنيف ، وكان الإمام — مع علو درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه فى النطق والكلام — لا يصغى نظره إلى « الغزالى » سرًّا لإبائه عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه ، وهذا لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به ، والاعتداد بمكانه ، مظهراً خلاف ما يضمره ، ثم بقى كذلك إلى انقضاء أيام الإمام .

فخرج من نيسابور ، وصار إلى العسكر ، واحتل من نظام الملك محل القبول وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته وظهور اسمه ، وحسن مناظرته ،

(٧) هو عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى الذى توفى سنة ٥٢٩ هـ ، وكان متصلاً بالإمام الغزالى ومصاحباً له .

وجرىء عبارته . وكانت تلك الحضرة محطّ رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ، للقيام بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق .

ثم نظر فى علم الأصول – وكان قد أحكمه – فصنف فيه تصانيف ، وجدد المذهب فى الفقه ، فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته فى بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام فى تلك الديار قريباً من عشر سنين : يطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها ، مثل : إحياء علوم الدين ، والكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة ، إلى سكون النفس ، وكرم الأخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات ، وتزيّا بزى الصالحين ، وقصر الأمل ، ووقف الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة ، وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على

السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشتغلا بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً تقيا ، وذخرا للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجل فخر الملك جمال الشهداء تغمده الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمته ودولته ، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالى إلى ودرجته. وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته . فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه ألا يبقى نفائسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح وشدد فى الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسا بور ، وكان الليث غائباً عن عرينه ، والأمر خافياً فى مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس فى المدرسة الميمونة النظامية ، عمرها الله ، فلم يجد بدًّا من الإذعان لمولاه ونوى بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه ، والطعن فيما يذريه ويأتيه . والسعاية به والتشنيع عليه ! فما تأثر به ، ولا اشتغل بجواب الطاعنين ، ولا أظهر استيحاشًا بغميزة المخلصين . ولقد زرته مرارًا وماكنت أحدث نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه من الزعارة . وإيحاش الناس ، والنظر إليهم بعين الازدراء ، والاستخفاف بهم كبرًا وخيلاء ، واغترارا بما رزق من البسطة

فى النطق والخاطر والعبادة ، وطلب الجاه والعلو فى المنزلة ، إنه صار على الضد ، وتصفى عن تلك الكدورات وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف ، متيمن بما صار إليه . فتحققت ، بعد التروى والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا فى ليال كيفية أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله ، وغلبة الحال عليه ، بعد تبحره فى العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغريبة عن المعاملة وتفكر فى العاقبة ، وما يجدى وما ينفع له فى الآخرة فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وأمثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان فى النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد ، وطلبًا للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم ، وخاض فى الفنون وعاود الجد والاجتهاد ، فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها ، وبقى مدة فى الوقائع وتكافؤ الأدلة ، وأطراف المسائل ، ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به . تمرساً وتخلقًا . طبعاً وتحققاً ، وإن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله .

ثم سألنا عن كيفية رغبته فى الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر نيسا بور ، فقال معتذراً عنه :

ما كنت أجوز فى دينى إلى أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة ،

وقد حق عليّ أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه . وكان صادقاً فى ذلك .
ثم ترك قبل أن يترك وعاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة . إلى أن أصابته عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كـريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من أن تنوشه أيدى المنكيات ، أو ينتهك ستردينه بشىء من الزلات ، وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين : البخاري ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل فى ذلك الفن اليسير من الأيام يستفرغه فى تحصيله . ولا شك أنه سمع الأحاديث فى الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تتفق له الرواية ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة فى الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التى تخلد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قصبة طابران ، والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة فى آخرته ، كما خصه الله بفنون العلم فى دنياه بمنه .

ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما يقوم بكفايته ، نفقة أهلة وأولاده . فما كان يباسط أحداً فى الأمور الدنيوية ، وقد عرضت عليه أموال فما قبلها وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره .

ومما كان يعترض به عليه : وقوع خلل من وجهة النحو يقع فى أثناء كلامه ورجع فيه فأنصف من نفسه ، واعترف بأنه مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه فى كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التى تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه ، فما كان قصده إلا المعانى وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

ومما نقم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية فى كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام ، وكان الأولى به والحق أحق ما يقال : ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف اللبيب إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره ، مما رمز إليه إشارة الشرع . وإن لم يبح به ويوجد أمثاله فى كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة . فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغى أن يتعلق به فى الرد متعلق إذا أمكنه أن يبين له وجهاً فى الصحة يوافق الأصول ، على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره ، ويقوم به وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لأحد تقديره ينبغى أن يظهره بل أكثر الأشياء فيما يدرى يطوى ولا يحكى . فعلى ذلك درج الأولون من السلف الصالح إبقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين . وغيرة

المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع سنن أبي داود السجستاني . عن الحاكم أبي الفتح الحاكمي الطوسي . وما عثرت على سماعه . وسمع من الأحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي ﷺ ، من تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني . رواية الشيخ أبي بكر أحمد ابن الحارث الأصبهاني الإمام عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان ابن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالي من الشيخ : أبي عبد الله محمد بن أحمد الخواري : خوار طابران ، مع ابنيه : الشيخين عبد الجبار ، وعبد الحميد ، وجماعة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخواري ، أخبرنا أبو بكر بن الحارث الأصبهاني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى ، عن ابن الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان . سأل قتات بن أشيم الكناني : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ : أكبر مني . وأنا أسن منه . ولد رسول الله ﷺ . عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له « نقله الأستاذ عبد الكريم عثمان ، عن الطبقات الكبرى للسبكي ، وفي كتابه النفيس « سيرة الغزالي » .

كتبه

ولقد ألف الإمام الغزالى عشرات الكتب ، عد منها صاحب طبقات الشافعية ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدى ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة :

منها فى الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها فى علم الكلام : الاقتصاد فى الاعتقاد .

ومنها فى الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة .

ومنها فى التصوف : بداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكتاب الإحياء .

بيد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالى – سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها ، فإننا نجد أن أهمها فى نظر الباحث الذى يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة :

وهى – فضلا عن ذلك – تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها ، لبقى هو الغزالى العملاق ، الصوفى الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً . . ولكنه لو لم يؤلفها ، لما كان هو الإمام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ – أما أحدها ، فإنه : كتاب المنقذ من الضلال .

وهو كتاب لا غنى للباحث فى تطور حياة الغزالى الفكرية عنه ، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية ، فى تطورها : من الدراسة المستفيضة إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة ثم من التصوف .

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التى ترد عليها ، ويبين الطريق الصواب ، لإحياء الشعور الدينى ، حيثما يفتر عند بعض الناس .

وهو من الكتب التى يندر ما يماثلها فى ثقافتنا الشرقية ، إذ أن كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكرى ، وانتفاضاتهم الذهنية .

ولم يسبق « الغزالى » – فيما نعلم – فى هذا النهج سوى « الحارث بن أسد المحاسبى » فى مقدمة كتاب الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من حيرته ، وشكه الهين السهل ، ثم يقينه الذى انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام « الغزالى » كتب « الحارث » وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب « الوصايا » من العوامل التى دفعت الإمام « الغزالى » إلى كتابة « المنقذ » .

وقد كتبه الإمام « الغزالى » بعد أن أناف سنه على الخمسين ، كما يذكر هو .

٢ – وأما ثانيها فإنه : « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام « الغزالى » ، حينما سمى كتابه : تهافت الفلاسفة – كما يقول « بلاسيوس » – كان يريد أن يمثل لنا : أن العقل الإنسانى ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ ، مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك ، كما يهلك البعض .

فكأن الغزالى يريد أن يقول :

« إن الفلاسفة خدعوا بأشياء ، أسرعوا إليها بلا إعمال روية ، فتهافتوا ،

وهلكوا الهلاك الأبدى » .

وقد حاول « بلاسيوس » ؛ أن يجد فى عبارات كتاب : « التهافت » وفى استعمال « ابن رشد » ، لهذه الكلمة ، ما يؤيد افتراضه[٨] » .

ومما لا شك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجرأة ، موفقة كل التوفيق .

وماكان المقصد الأول والهدف الأساسى ، لهجومه ، هـو هدم الآراء فى نفسها ، إذ أن بعضها صحيح ، موافق للدين .

وإنما كان هدف الإمام « الغزالى » : هدم المنهج العقلى ، الذى استندت إليه هذه الآراء .

فخلود النفس مثلا : رأى يقول به الإمام « الغزالى » ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معوله ، وأخذ يهدم بيد قوية ؛ المسلك العقلى ، الذى أثبت به الفلاسفة خلود النفس ، فانهارت أدلتهم ، وتهافتت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بخلود النفس .

وهو لم يلتزم فى الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغيير فى وجوه أدلتهم ، بما يبين تهافتهم[٩] .

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

ويقول :

« أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول

---

(٨) من كتاب « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » . ترجمة الدكتور « محمد عبد الهادى أبو ريدة » .

(٩) من كتاب « التهافت » .

مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارة ، مذهب المعتزلة ، وأخرى ، مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابًّا عن مذهب مخصوص » .

ولقد وفق الإمام « الغزالى » توفيقاً تامًّا ، فما انتدب نفسه إليه فى هذا الكتاب ، وهو : إثبات أن العقل – إذا لم يتخذ الوحى هادياً ومرشداً – عاجز كل العجز ، عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، فما وراء الطبيعة .

٣ – أما ثالث الكتب فإنه : « الإحياء » .

وهو أهمها ، وأهم كتب الإمام « الغزالى » عامة ، ولقد قال فيه الإمام « النووى » : «كاد الإحياء يكون قرآناً » .

وقد ألفه الإمام « الغزالى » ، فى أوائل الفترة التى اصطحب فيها مع العزلة ، ومما يؤيد ذلك ، ما رواه الإمام « أبو بكر بن العربى » فى كتابه : « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام ، فى جمادى الآخرة ، سنة تسعين وأربعمائة : وكان قد راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين ، إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام . . فقرأت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذى سماه : « الإحياء لعلوم الدين . . » .

أما فيما يتعلق بالبواعث التى من أجلها ألف الإمام : «كتاب الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بالهدف الذى من أجله ألف كتاب « الإحياء » .

وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه . فإن ذلك كله يتلخص فى كلمة واحدة هى الإخلاص .

ولقد روى « ابن الجوزى » : أن بعض أصحاب « أبى حامد » . سأله قبيل الموت قائلا : أوصنى . فقال له : «عليك بالإخلاص» ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص ! ! لقد تلفت « أبو حامد » يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة ، والصيت ، والجاه ، والمنزلة عند الناس ، وعند الحكام . . . وانتفض « أبو حامد » انتفاضته ، التى وضع بها نفسه فى محيط الإخلاص .

وتلفت « أبو حامد » – بعد ذلك – فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ، بكم ، عمى ، عن قوله تعالى :

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾

وعن قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ، مخلصين له الدين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فادعوا الله ، مخلصين له الدين ﴾ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة ، التى تدعو إلى الإخلاص فى الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهى فى دعوتها إلى الإخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين – فى نظر علمائه ، فضلا عن غيرهم – فتوى حكومية ، أو جدلا للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو سجعاً مزخرفاً ، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى « أبو حامد » ذلك ، ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الإخلاص أساساً ، وشعاراً ، وما من شك فى أن إخلاص الدين لله وحده ، هو التوحيد ، وما من شك فى أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامى ، وهو طابعه ، وهو هدفه ، وغايته .

وألف الإمام كتابه إذن ، ليبين فيه الإخلاص أسساً ، ونتائج ، وأسباباً ، وغايات .

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فقرات . . . كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهى أربعة :

١ - قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التى يحبها الله ، سبحانه ، ورسوله ، ﷺ .

٢ - قسم العبادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ - قسم المهلكات . وهى الأخلاق المذمومة ، التى ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها ، وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ - قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ، ويشرح الوسائل التى بها يكتسب ، والثمار التى تجنى من التخلق به .

وهو فى كل هذه الأقسام : يبتدئ كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

ويفتتح كتابه : « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة : « شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار » « وشواهد الشرع والعقل » .

لقد ﴿ شهد الله ، أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائماً بالقسط ﴾ فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلا ، وجلالا ونبلا .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء يكونون أربابا » .

والعلم الذى يريده الإمام « الغزالى » ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً ، مما نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذى يريده الإمام « الغزالى » إنما هو : علم الدين والدنيا ، ولا يحرم الإمام « الغزالى » منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلا : فإذا أدى العلم إلى ضرر ما ، إما لصاحبه ، أو لغيره كان مذموماً .

والهدف من العلم ، على كل حال : زيادة الهداية ، وغرس الإخلاص . فإن من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً .

ولابد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، ولذلك يثنى الإمام « الغزالى » بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :

١ – الله وصفاته والأساس فيه ، أنه ليس كمثله شىء ، وأنه متصف بكل

صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ – وأنه ، سبحانه : بعث محمداً ، ﷺ ، برسالته إلى كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد – وهى قولك : لا إله إلا الله . ما لم تقترن بشهادة الرسول ﷺ وهى قولك : محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

٣ – والمسألة الثالثة هى الإيمان بالآخرة : البعث ، والحساب ، والنعيم أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه . فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن فى ذلك : فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، وفى القرآن إرشاد ، واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتهيأ الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية ، وباطنية ، وقد أطال الإمام « الغزالى » فى الطهارة الباطنية ، وسنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما الطهارة الظاهرية ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا ، خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

« والوضوء على الوضوء : نور على نور » بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل

الصلاة ، والصلاة إنما هى الباب الذى يدخل منه الإنسان إلى الله ، سبحانه وتعالى ، يناجيه وينغمس فى رحابه ، ويستنير بنوره ، وهى من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات . ﴿كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾ ، وإنها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة فى قوله تعالى : ﴿أقم الصلاة﴾ .

أما من لم يكن كذلك فى صلاته : فإنه يدخل تحت قوله صلوات الله وسلامه عليه : «كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب» وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع فى صلاته ، فإنه يدخل فى دائرة قوله تعالى :

﴿قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾ .

ويقرن الله ، سبحانه ، الزكاة بالصلاة فى غير ما موضع : ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ وقد جعلها الله تزكية ، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم﴾ ، ومعنى الإنفاق فى سبيل الله : إخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وباب الإخلاص ، فإذا ما صام الإنسان إيماناً واحتساباً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه .

والصوم ثلاث درجات : صوم العموم وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو : كف الجوارح عن الآثام ، وصوم

خصوص الخصوص وهو : صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل ، بالكلية . ويكفى فى فضل الحج ما رواه الشيخان : البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الإسلام المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هُدِىَ ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله وسلامه عليه :

أهل القرآن أهل الله وخاصته » والقرآن : رسائل أتتنا ، من قبل ربنا ، بعهوده نتدبرها فى الصلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ؛ وننفذها فى الطاعات ، والسنين المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ؛ وتلاوته إذن مطلوبة : جلاء للقلوب ، وشفاء لما فى الصدور ، وغرساً للإخلاص ، وتثبيتاً للتوحيد .

والقرآن نوع من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر فى قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ ، وفى قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ . والمخلص يذكر الله على الدوام ، مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان ، والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى .

ولقد فضل رسول الله ﷺ قول : « لا إله إلا الله » على سائر الأذكار ، لأنها عنوان الإخلاص ، ودليل التوحيد .

ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مخ العبادة ، يقول الله تعالى :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ .

ولكن لابد للإجابة من التوبة ، ورد المظالم ، والإقبال بكنه الهمة ، على الله عز وجل ، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة .

وبعد أن ينتهى الإمام « الغزالى » بذلك من ربع العبادات ، يبدأ فى ربع العادات ، فيبين فيه آداب الأكل ، وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية فى فضل العمل ، وفى استقامة العمال ، والتجار : فمن الذنوب ذنوب ، لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء .

ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو : «كتاب الحلال والحرام» والحلال : كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض ؛ والحرام كله خبيث ، ولكن بعضه أخبث من بعض .

ويفصّل الإمام كل ذلك ؛ لينتهى إلى «كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة » وأساسه حسن الخلق ، والتأسى فيه بالرسول الذى يقول الله له :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقد بعث ، صلوات الله عليه وسلامه ، ليتمم مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة ، وفائدة الأخوة ، كما يريدها الدين عظيمة .

ولقد قال صلوات الله عليه وسلامه فى الثناء على الأخوة فى الدين : « من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » .

ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه وسلامه فى ذلك : « مثل الأخوين ،

إذا التقيا مثل اليدين : تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط ، إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط ، مبيناً الآراء فى كل منهما لينتهى إلى أن كلام الشافعى ، رحمه الله ، فى هذا الموضوع -- وهو فصل الخطاب -- إذ قال : « يا يونس ؛ الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم : مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هذا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له فى الحال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان فى جانبه الروحى ، ولكن السفر قد يكون بِسَيْرِ القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع السفرين ويحث عليهما قوله تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

وينتهى الإمام فى كتاب « السماع والوجد » بالحكم الرزين المنطقى ، وهو أن سماع الغناء قد يكون حراماً ، وقد يكون مباحاً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحبًّا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم ، إلا ماهو الغالب على قربهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له من التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرم السماع منه إلا الصفات المحمودة .

ولابد – لاستمرار الدين حيا فى النفوس – من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم فى سبيل الله ، ختم الفصل بقوله :

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى ، أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى ، أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية ، أثر كلامهم فى القلوب القاسية فلينها ، وأزال قسوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فكتموا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه .

ويختم الإمام « الغزالى » ربع العادات بكتاب : آداب المعيشة وأخلاق النبوة ، فيبين ما كان عليه الرسول ، ﷺ ، من خلق : هو كما فى القرآن ، ويشرح فى استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ويبتدئ ربع المهلكات : بكتاب من انفس الكتب ، لا غنى عنه قط لمن

يريد أن يعالج التصوف عمليا ؛ أو أن يقتنع بحقيقته نظريًّا ، ذلك هو كتاب : « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب : هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعى إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه .

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذى له هذه المنزلة ؟ يأتيك الجواب أنه :

« هو لطيفة ربانية ، روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو المخاطب ، والمعاتب والمطالب » .

وفى النصوص التى ذكرناها فيما بعد ما يغنى عن تلخيص هذا الكتاب .

ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » .

ومن هذا العنوان وحده تفهم أن « الغزالى » مزج بين رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق .

والخلق الحسن إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمرة مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن أحبكم إلى ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعظم المهلكات لابن آدم ، شهوة البطن .

فلابد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان إلا حلالا ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة والقوة على

العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضاً يشل القلب ، ويمنع منها .

ثم يبحث الإمام عن « آفات اللسان » .

وما من شك فى أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة .

ولكن الناس تساهلوا فى الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهى كثيرة ، وما من شك فى أن من أسباب النجاة : ما نصح به الرسول ﷺ فى قوله : « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية ، كل ذلك : من آفات اللسان . والمثل العربى يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » .

والطريقة المثلى : ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التى تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال . فقال له : « لا تغضب » . مما يزيل الغضب ، الجلوس إذا كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان جالساً .

ومما يزيل الغضب الوضوء ، والاغتسال .

ومما يزيله السجود .

« ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض » وهذه إشارة إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجرى وراءها فى جشع

وفى تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا . فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة .

ومحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح عن رسول الله ﷺ :

« إن الله ، عز وجل ، يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثانى ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

أما المقياس الصحيح فهو قوله تعالى :

﴿ ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وحب الجاه ، والرياء والكبر ، والعجب ، والغرور : كلها : من الآفات التى يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .

أما إذا وصلنا إلى ربع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج ، وإلى النور الهادى ، وإلى صفاء الصفاء ! !

ويبتدئ هذا القسم ، أول ما يبتدئ بـ « التوبة » فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

ووجوب التوبة : ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره :

﴿ يأيها الذين آمنو توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستراب فيه .

ومهما يكن من شيء فـ ﴿ إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ﴾ ، ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية ، مهلكة ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فالله تعالى ، أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والإيمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« الصبر نصف الإيمان » وقال :

« الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الإنسان نحو المنعم بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه : سبب فى زيادة النعم ، يقول تعالى :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

والرجاء والخوف : جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود .

ويقرن الإمام « الغزالى » الفقر بالزهد . . والزهد فى الدنيا ، مقام شريف من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا ، فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

والزهد إذن قوة ؛ لأنه بيع النفس والمال لله ، وتجرد فى سبيله .

والتوكل ، منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن وحد الله حق توحيده توكل عليه :

﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ .

أما محبة الله ، فإنها الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، ومن ثمارها : الشوق ، والأنس ، والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : « كالتوبة ، والصبر ، والزهد ، وغيرها » . فهى واسطة العقد ، ودرة القلادة :

« والذين آمنوا أشد حبا لله » .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواهما » .

وقد انكشف لأرباب القلوب ، ببصيرة الإيمان ، وأنوار القرآن : أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

« فالناس كلهم : هلكى إلا العالمون ؛ والعالمون كلهم : هلكى إلا العامليون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون : على خطر عظيم » .

فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص ، رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق ، هباء . وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً :

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن راقب الله فاز ؛ ومن حاسب نفسه نجا .

وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وكثر الحث فى كتاب الله تعالى ، على التدبر والاعتبار ، والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

وقد روى أن رسول الله ﷺ : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

ومما يعين – على وجه العموم – التفكر فى الموت وما بعده ، « والكيّس من

دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » ، يقول ، صلوات الله وسلامه عليه :
«كفى بالموت واعظاً » .

ويختم الإمام الغزالى كتابه بقوله :

« وروى أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه – لبيعه – فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبى ، وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء ، وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابنى ، ابنى » فبكى الناس وتركوها على ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ، ثم بشرها فقال :

« أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال ﷺ :

« إن الله تبارك وتعالى : أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها » .

فتفرق المسلمون على أفضل السرور ، وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردناه فى «كتاب الرجاء » يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى ، ألا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته .

أثر الإحياء :

أما أثر هذا الكتاب فى العالم الإسلامى : فقد كان ضخما ، لقد شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير منه إلى الإنجليزية ، والفرنسية ، والإسبانية ، وغير ذلك من اللغات الحية ، شرقية وغربية .

ومخطوطاته ، التى بمكتبات العالم ، لاتكاد تحصر ، وقد طبع فى القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع فى الهند ، وفى تركيا ، وفى فارس .

ولا يزال الكتاب للآن فى العالم الإسلامى مصدر إلهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها ، لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال فى القطر المصرى جماعات تعقد حلقات أسبوعية ، تخصصها لقراءة « الإحياء » والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

تقدير العلماء لكتاب « الإحياء » :

أما تقدير العلماء ، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبى المظفر » سبط « أبى الفرج ابن الجوزى » فى قوله :

« ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه ، من الأحاديث التى لم تصح » .

وفكرة الأحاديث التى لم تصح ، أذاع بها كثيرون من أعداء الإمام « الغزالى » ، وتحدثوا عنها مقبلين ومدبرين ، قائمين وقاعدين ، ولكن ها هو ذا المولى « أبو الخير » يقول :

« أما الأحاديث التى لم تصح ، فلا ينكر عليه إيرادها ، لجوازه فى الترغيب والترهيب » .

والواقع ، أن الإمام « الغزالى » لم يأت بهذه الأحاديث التى لم تصح ، لإثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية التى يثبت بها ما تؤدى إليه من أحكام ، وقواعد ، وهى على هذا الوضع كافية

للإثبات والاستدلال ، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الإحياء ، فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التى أتى بها الإمام « الغزالى » فى هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها ، من ناحية الإثبات ، والاستدلال .

ويتبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض . لا شكلا ولا موضوعاً .

على أنه قد قام العالم الثبت الحجة « الحافظ [10] العراقى » الذى قال فيه شيخه : « إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أبلج .

وشىء آخر عن هذا الاعتراض له أهمية ، وهو أن كثيراً من الأحاديث التى قال عنها الإمام « العراقى » « لا أصل لها » بين الإمام « الزبيدى » شارح الإحياء أصلها ، وكثيرا من الأحاديث التى قال عنها الإمام « العراقى » إنها ضعيفة ، بين

---

(١٠) الحافظ العراقى : هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى ولد بمصر فى جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ .

أما نسبته إلى العراق : فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق .

وتوفى والده وهو فى الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إذوهبه الله فطرة ممتازة : ذكاء خارقاً ، وذهناً صافياً ، وهمة عالية فى طلب العلم : ويسرت له عناية الله الجو الثقافى ، فأخذ من كل العلوم الإسلامية بحظ وافر ، ولكنه تخصص فى « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ؛ وكان من توفيق الله ؛ أن منحه ذاكرة قوية حافظة . فلقبه شيوخه « بحافظ الوقت » .

ومن أجل الحديث قام « الحافظ العراقى » بعدة رحلات ، سائراً فى ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال فى طلب الحديث الشريف .

لقد سافر العراقى إلى الشام ، متنقلا بين حواضرها ، وسافر إلى مكة والمدينة . وانتهت حياته فى شعبان سنة ٨٠٦ هـ . وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، خدم فيها الحديث خدمة جليلة .

الإمام « الزبيدى » أنها ضعيفة ، من الوجه الذى رواها به الإمام « العراقى » ولكنها هى نفسها حسنة ، أو قوية من وجه آخر ، وبين الإمام « الزبيدى » هذا الوجه الآخر .

قال الحافظ « العراقى » عن كتاب « الإحياء » :

« إنه من أجل كتب الإسلام ، فى معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة ، بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس : اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول « علىّ » كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى » .

وقال « الزبيدى » شارح « الإحياء » :

« وأنا لا أعرف له نظيرا ، فى الكتب التى صنفها الفقهاء ، الجامعون فى تصانيفهم بين النقل ، والنظر ، والفكر ، والأثر » .

وقال « ابن السبكى » :

« وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل من ينظر فيه إلا ويتغظ به فى الحال » .

وقال الشيخ « عبد القادر العيدروس » فى كتاب « تعريف الأحياء بفضائل الإحياء » .

اعلم أن فضائل « الإحياء » لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى .

وكان « عبد الله العيدروس » رضى الله عنه ، يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه قال : « مكثت أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ، وأتدبره ، فيظهر لى منه فى كل يوم علوم ، وأسرار عظيمة ، ومفهومات غزيرة ، غير التى قبلها ؛ ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد » ومن كلامه :

عليكم يا إخوانى بمتابعة الكتاب والسنة : أعنى الشريعة المشروحة فى الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ؛ وكتاب الفقر والزهد ؛ وكتاب التوبة ؛ وكتاب رياضة النفس » .

وقد ألزم الشيخ « عبد الله العيدروس » أخاه قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات ، برأى أعتقد أنه فيصل الحق ، فى موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الجليل الاستاذ الأكبر الشيخ « محمد الخضر حسين » شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء فى كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ؛ وكفى بكتاب الإحياء ، فضلا وسمو منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم ، وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره » .

﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾ .

النصوص[11] التى تبين منهج الغزالى

النص الأول : الطريق[12] :

الطريق : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله ، كان الله له .

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا : بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ

(11) أخذنا هذه النصوص من طبعة « السراوى » ، وهى مرقمة بحسب صفحاتها فى هذه الطبعة .
(12) الإحياء ص ١٣٧٧ .

القلب ، مجموع الهمم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل فى تفسير ، ولا يكتب حديثا ولا غيره بل يجتهد ألا يخطر بباله شىء سوى الله تعالى .

فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة قائلا بلسانه : الله ، الله ، على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر .

ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه ، حاضراً فيه ، كأنه لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار فى استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار فى استجلاب رحمة الله تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما لله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق فى قلبه .

ويكون فى ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا يثبت ، ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً . وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على فن واحد .

ومنازل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم

وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية ، وجلاء . ثم استعداد ، وانتظار فقط .

وأما النظار وذوو الاعتبار : فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد ، على الندور ، فإنه أكثر أحوال الأنبياء ، والأولياء ولكن استوعروا هذا الطريق ، واستبطنوا ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر .

* * *

النص الثانى : بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد[١٣] .

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب ، من حيث لا يدرى ، فقد صار عارفاً بصحة الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فينبغى أن يؤمن به ، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات .

أما الشواهد فقوله ، تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ، فهى بطريق الكشف والإلهام .

وقال ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم مالم يعلم ، ووفقه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم ، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل ، حتى يستوجب النار » .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ من الإشكالات

---

(١٣) الإحياء : ص ١٣٨٥ .

والشبه : ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قيل : يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ، ويخرج به من الشبهات .

ولذلك كان ، ﷺ ، يكثر فى دعائه من سؤال النور ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« اللهم أعطنى نورا ، وزدنى نورا ، واجعل لى فى قلبى نوراً ، وفى قبرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً » حتى قال : « فى شعرى وفى بشرى ، وفى لحمى ودمى . وعظامى » .

وسئل ﷺ ، عن قول الله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ﴾ : ما هذا الشرح ؟ فقال :

« هو التوسعة . إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح »

وقال ﷺ ، لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل »

وقال على رضى الله عنه : ما عندنا شىء ، أسره النبى ﷺ ، إلينا إلا أن يؤتى الله تعالى ، عبدا فهما فى كتابه . وليس هذا بالتعلم .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ إنه الفهم فى كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ خص ما انكشف باسم الفهم

وكان « أبو الدرداء » يقول : المؤمن من ينظر بنور الله ، من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ، ويجريه على ألسنتهم .

وقال بعض السلف ، ظن المؤمن كهانة .

وقال ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ . وقوله تعالى ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ .

وروى «الحسن» عن رسول الله ﷺ ، أنه قال :

« العلم علمان ، فعلم باطن فى القلب ، فذلك ، هو العلم النافع . إلخ » .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو؟ فقال هو : سر من أسرار الله تعالى ؛ يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه ، لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا . .

وقد قال ، ﷺ : « إن من أمتى محدثين ، ومعلمين ، ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ﴾ ولا محدث : يعنى الصديقين .

والمحدث هو الملهم ، والملهم : هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لا من جهة المحسات الخارجة . والقرآن مصرح : بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم .

وقال الله تعالى : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السمٰوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم .

وقال تعالى : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

وكان « أبو يزيد » وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلا ، وإنما العالم يأخذ عمله من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بعضه بوسائط

تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيا ، بل اللدنى : الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج . فهذه شواهد النقل .

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضا خارج عن الحصر . وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال « أبو بكر الصديق » ، رضى الله عنه ، « لعائشة » ، رضى الله عنها ، عند موته إنما هما أخواك وأختاك . وكانت زوجته حاملا ، فولدت بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال « عمر » رضى الله عنه فى أثناء خطبته : يا سارية الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة .

وعن « أنس بن مالك » ، رضى الله عنه قال ؛ دخلت على « عثمان » رضى الله عنه – وكنت قد لقيت امرأة فى طريق ، فنظرت إليها شزرا ، وتأملت محاسنها – فقال عثمان رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل على أحدكم ، وأثر الزنى ظاهر على عينيه ! ! أما علمت أن زنى العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبى ؟ فقال لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وعن أبى « سعيد الخراز » قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً عليه خرقتان ؛ فقلت فى نفسى :

هذا وأشباهه كل على الناس ، فنادانى وقال :

﴿ والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ فاستغفرت الله فى سرى ، فنادانى وقال :

﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده﴾ . ثم غاب عنى ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال : فلما قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل؟ قال فصاح بى ، يا أبا العباس ، رد هذه الهمة الدنية ، فإن لله تعالى ألطافاً خفية :

* * *

النص الثالث : دليل الكشف[١٤]

والدليل القاطع على الكشف الذى لا يقدر على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز ذلك فى النوم ، فلا يستحيل أيضا فى اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر ، لاشتغاله بنفسه .

الثانى : إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب ، وأمور فى المستقبل ، كما اشتمل عليه القرآن . . وإذا جاز ذلك للنبى ، ﷺ ، جاز لغيره : إذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ، ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبيًّا ، بل يسمى وليا .

فمن آمن بالأنبياء ! وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب الى الملكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث فى الروع ، والوحى .

---

(١٤) الإحياء ص ١٣٨٩ .

فإذا أقر ، بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ، ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا إليه .

فهذا ما ينبه على حقيقة ماذكرناه : من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت .

وأما السبب فى انكشاف الأمر فى المنام بالمثال المحوج إلى التعبير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ؛ فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين :

ظهر لى الملك ، فسألنى أن أملى عليه شيئاً من ذكرى الخفى ، عن مشاهدتى من التوحيد ، وقال : ما نكتب لك عملا ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت : ألستما تكتبان الفرائض ؟ قالا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ، لا يطلعون ، على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

* * *

النص الرابع : الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى[15] .

فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ . كما أن الماء إذا اجتمع فى الأنهار ،

(١٥) الإحياء ص ١٣٨١ .

منع ذلك من التفجر فى الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا ، يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة .

فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك .

وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ : فتعلمه علماً يقينيًّا : بالتأمل فى عجائب الرؤيا ، واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل ، أوكان فى الماضى ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

وإنما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال ﷺ : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : المتنزهون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافاً » .

ثم قال فى وصفهم إخبارا عن الله تعالى : « ثم أقبل بوجهى عليهم ، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شيء أريد أن أعطيه » ؟

ثم قال تعالى : « أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم » .

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت

وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك .

* * *

النص الخامس : الجود الإلهى[١٦] .

علوم الله – سبحانه – لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبى ، الذى تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة .

ومراقى هذه الدرجات هى : منازل السائرين إلى الله تعالى ، ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما أنا نؤمن بالنبوة ، والنبى ، ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبى .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل ، وما اكتسبه من العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته :

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها ﴾ .

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة ، لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ﷺ :

---

(١٦) الإحياء : ١٣٥٩ .

« إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والتعرض لها بتطهير القلب ، وتزكيته من الخبث والكدورة ، الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتى بيانه :

وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ :

« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب له » ؟

وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل :

« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » .

وبقوله تعالى فى الحديث القدسى : « من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعاً » .

كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل ، ومنع من جهة المنعم ، تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا .

ولكن حجبت لخبث وكدورة ، وشغل من جهة القلوب ، فإن القلوب كالأوانى ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم : هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فيه كمال الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

* * *

النص السادس(١٧) : شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى :

---

(١٧) الإحياء ص ٢٥٨١ .

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ، ولرسوله ﷺ فرض ، وكيف يفرض ما لا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلابد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب .

ويدل على إثباته لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ .

وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله ﷺ ، الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال :

« أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما « .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .
وفى رواية « ومن نفسه » .

كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[١٨] .

وإنما جرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله ﷺ ، بالمحبة فقال :

---

(١٨) التوبة ٢٤ .

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله إياى » .

ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله : إنى أحبك فقال ﷺ « استعد للفقر » فقال إنى أحب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .

وعن عمر رضى الله عنه ، قال : نظر النبى ﷺ ، إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبى ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

وفى الخبر المشهور ، أن إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه :

« هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى ، إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض » .

وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه . ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه .

وقد قال نبينا ﷺ فى دعائه :

« اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد » .

وجاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » . قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من ذاق من خالص محبة الله تعالى

شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر » .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو ، حتى يغفل ؛ فإذا تفكر حزن » .

وقال أبو سليمان الدارانى : « إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنانُ وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ » .

ويروى : « أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وقد نحلت أبدانهم ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قال : الشوق إلى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين . فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون » .

وقال : عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت : أما تجد البرد فقال : من شغله حب الله ، لم يجد البرد .

وعن سرى السقطى قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام ، فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون يا أولياء الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

وقال هـرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، أحبه وإذا أحبه أقبل إليه ؛ وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا ، وتروحه فى الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ! ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول ، فكيف وده ؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه ؟

وفى بعض الكتب : عبدى : أنا – وحقك – لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبا » .

وقال يحيى بن معاذ : « مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضا : « إلهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتنى إليك ، وسر بلتنى معرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : سترا وتوبة ، وزهداً ، وشوقاً ، ورضاً ، وحبًّا . . تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك . . ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربى ، ولاح طائرى ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ، وقد اعتدت هذا منك صغيراً ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ، وقد ورد فى حب الله تعالى ، من الأخبار والآثار ، ما لايدخل فى حصر حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه . فلنشتغل به » .

الفصل السادس

المنقذ من الضلال

- توطئة
- مدخل السفسطة
- أصناف الطالبين (علم الكلام ، الفلسفة ، أصناف الفلاسفة ، أقسام علومهم ، مذهب التعليم ، طرق الصوفية)
- حقيقة النبوة
- سبب نشر العلم

توطئة

الحمد لله ، الذى يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين ، أن أبث إليك غاية العلوم ، وغائلة المذاهب أغوارها .

وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق . وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع[1] الاستبصار .

وما استفدته أولا من علم الكلام .

وما اجتويته[2] ثانياً : من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام .

وما ازدريته ، ثالثاً : من طرق التفلسف .

وما ارتضيته ، آخراً : من طريقة التصوف :

وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .

وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .

وما ردنى إلى معاودتى ، « بنيسابور » بعد طول المدة .

---

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت فى نعمة .

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلا عليه ، ومستوقفاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا — أحسن الله ، تعالى ، إرشادكم ، وألان للحق قيادكم — : أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب مع كثرة الفرق وتباين الطرق . بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، و ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ . وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الصادق المصدوق ، حيث قال : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة[3] » ؛ فقد كان ما وعد أن يكون .

ولم أزل فى عنفوان شبابى — منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين — : أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الجذور : أتوغل فى كل

---

(٣) روى هذا الحديث على اختلاف فى متنه ، فى عدة كتب ، بعدة أسانيد ولكنه لم يرو فى « صحيح البخارى » ولافى « صحيح مسلم » .

وقد قال « ابن حزم » عنه ، إنه لا يصح أصلا من جهة الإسناد .

وقال « ابن الوزير » فى العواصم والقواصم » . إياك أن تغتر بزيادة كلها فى النار إلا واحدة : فإنها زيادة فاسدة ، ولايبعد أن تكون من دسيس الملاحدة .

على أنه قد روى هذا الحديث بالخاتمة الآتية اثنتان وسبعون فى الجنة . وواحدة فى النار » وقال المقدسى فى «أحسن التقاسيم» إن الحديث على هذا الوضع ، أصح إسناداً .

ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهر ستانى » يعدون الفرق التى فى النار ، ويتكلفون الوصول بها إلى « اثنتين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لاينتهى حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب ، « التبصير فى الدين » التى كتبها « الشيخ زاهد الكوثرى » رحمه الله تعالى .

مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على بطانته .

ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته ، فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبى ، وديدنى ؛ من أول أمرى . وريعان عمرى : غريزة . وفطرة من الله . وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى ؛ حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت :

صبيان النصارى : لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ؛ وصبيان اليهود ، لا نشوء لهم إلا على التهود : وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهوّدانه ، وينصّرانه ، ويمجّسانه » .

فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تميز

الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى : أولا ، إنما مطلوبى : العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم : ما هى ؟

فظهر لى : أن العلم اليقينى : هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً لليقين ، مقارنة أو تحدى بإظهار بطلانه – مثلا – من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً ، فإنى إذا علمت ، أن العشرة : أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل ، لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك – بسببه – فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه .

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت : أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى .

مدخل السفسطة

ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى : عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات .

فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهى الحسيات ؛ والضروريات : فلابد من إحكامها أولا ، لأتيقن أن ثقتى بالمحسات ، وأمانى من الغلط فى الضروريات : من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ، ومن جنس أمانى أكثر الخلق فى النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ، أتأمل فى المحسات والضروريات ، وأنظر : هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسات أيضاً ؛ وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل ، فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة – بعد ساعة – تعرف : أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار .

هذا ، وأمثاله ، من المحسات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته .

فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسات أيضاً ، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات ، التى هى من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والإثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً : موجوداً معدوما ، واجباً محالا .

فقالت الحواس : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات ، كثقتك بالمحسات وقد كنت واثقاً بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالته !

فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد فى النوم أموراً ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك ، بحس أو عقل : هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك : كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية : أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لا توافق هذه المعقولات .

ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال رسول الله ﷺ :

« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :

﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة ، لم يمكن تركيب الدليل .

فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال .

حتى شفى الله تعالى ، من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على أمر ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله ، تعالى ، فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف : موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ . قال :

« هو نور ، يقذفه الله تعالى ، فى القلب » .

فقيل : وما علامته ؟

قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » وهو الذى قال : عليه السلام ، فيه :

« إن الله تعالى : خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليه من نوره » .

فمن ذلك النور : ينبغى أن يطلب الكشف .

وذلك : النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين ، ويجب الترصد له ، كما قال عليه السلام : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات : أن يعمل فى كمال الجد فى الطلب ، حتى ينتهى إلى طلب مالا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ؛ فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب نفر واختفى . ومن طلب مالا يطلب لا يتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى ، من هذا المرض بفضله ، وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ - المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأى ، والنظر .

٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - والصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت فى نفسى : الحق ، لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى فى درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع فى الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلد ألا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب[٤] لا يرأب[٥] وشعث[٦] لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، وتستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق :

---

(٤) الشعب : من الأضداد وهو هنا بمعنى الشق .

(٥) يرأب : يصلح .

(٦) شعث : متفرق .

مبتدئاً بعلم الكلام ،
ومثنياً بطريق الفلسفة ،
ومثلثا بتعليم الباطنية ،
ومربعاً بطريق الصوفية .

* * *

علم الكلام : مقصوده وحاصله :

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم .

وصنفت فيه ما أردت أن أصنف .

فصادفته علماً وفيًّا بمقصوده ، غير واف بمقصودى .

وإنما مقصوده . حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة (٧) .

---

(٧) نرى أن الإمام الغزالى – مع هدمه فى النهاية لعلم الكلام – كان مجاملا للمتكلمين ، ويسرنا أن نذكر هنا رأى السلف فى شىء من الاستفاضة .

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب « جامع بيان العلم وفضله » : نهى السلف – رحمهم الله – عن الجدال فى الله ، جل ثناؤه ، فى صفاته ، وأسمائه . وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه ، والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ، لأن الله ، عز وجل : لا يوصف عند الجماعة – أهل السنة – إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه . وليس كمثله شىء فيدرك بقياس أو إنعام نظر ، وقد نهينا عن التفكير فى الله ، وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه . وعن مصعب بن عبد الله الزبيرى ، قال : كان مالك بن أنس يقول : الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام فى رأى جهم ، والقدر ، وماأشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » .

وقال أيضاً فى الكتاب نفسه : « وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا نكاد نرى أحداً =

= نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل .

وقال مالك ، أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم ، لدين جديد ؟ .

قال أبو بكر : « تناظر القوم وتجادلوا فى الفقه . ونهوا عن الجدال فى الاعتقاد لأنه يؤدى إلى الانسلاخ من الدين . ألا ترى إلى مناظرة بشر . فى قوله ، عز وجل : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) حين قال : هو بذاته ، فى كل مكان . فقال له خصمه : فهو فى قلنسوتك ، وفى حشك ، وفى جوف حمار ، تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله ، وأنا والله أكره أن أحكى كلامهم . . . فمن هذا وشبهه نهى العلماء » .

من كتاب « التمهيد » للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق :

وقد جاء فيه أيضا عن شيخ الإسلام الهروى المتوفى سنة ٤٨١ هـ

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : « خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض . ولكن نزل القرآن ، فصدق بعضه بعضاً ، ماعرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به » .

وأخرج عن أبى هريرة قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا » .

وأخرج عن أبى الدرداء ، وأبى أمامة ، وأنس بن مالك ، وواثلة بن الأسقع قالوا : « خرج إلينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع فى شىء من الدين ، فغضب غضباً شديداً ، لم يغضب مثله . ثم انتهرنا ، قال : يا أمة محمد ! لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال : أبهذا أمرتكم ، أو ليس عن هذا نهيتكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال : ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء ، فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان . ذروا المراء ، فإن المراء لاتؤمن فتنته . ذروا المراء ، فإن المراء يورث الشك ، ويحبط العمل ، ذروا المراء فإن المؤمن لايمارى ، ذروا المراء ، فكفى بك إثماً : ألاتزال ممارياً ، ذروا المراء فإن المارى لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء ، فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى وسطها ، وربضها ، وأعلاها لمن ترك المراء ، وهو صادق ، ذروا المراء ، فإنه أول ما نهانى الله عنه بعد عبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد ، ولكن رضى بالتحريش ، وهو المراء فى الدين ، ذروا المراء ، فإن بنى إسرائيل : افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة=

فقد ألقى الله تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي : الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .

ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله[8] .

=وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على الضلالة ، إلا السواد الأعظم ، قالوا : يا رسول الله ، ومن السواد الأعظم ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابى ، ثم قال : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعودغريباً فطوبى للغرباء ، قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ولايمارون فى دين الله اهـ .

(٨) تحدث الإمام الغزالى عن علم الكلام غير مرة فى كثير من كتبه ، وتحدث فى « الإحياء » عن الآراء فى كونه حلالا أم حراماً ، ثم قال .

وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعى ، رضى الله عنه ، يوم ناظر حفصاً الفرد ، وكان من متكلمى المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل ، العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً : قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك ، خير له من أن ينظر فى الكلام .

وحكى الكرابيسى : أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شىء من الكلام فغضب ، وقال : سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه أخزاهم الله .

ولما مرض الشافعى رضى الله عنه ، دخل عليه حفص الفرد : فقال له من أنا ؟ فقال حفص الفرد : لاحفظك الله . ولارعاك حتى تتوب مما أنت فيه .

وقال أيضاً : لو علم الناس مافى الكلام من الأهواء ، لفروا منه فرارهم من الأسد .

وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولادين له .

فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة .

ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ،

قال الزعفرانى : قال الشافعى : حكمى فى أصحاب الكلام ، أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأخذ الكلام .

وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولاتكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً فى الرد على المبتدعة ، وقال له : ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة ، والتفكر فى تلك الشبهات ، فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث .

وقال أحمد ، رحمه الله : علماء الكلام زنادقة .

وقال مالك ، رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين لن تتفاوت .

وقال مالك رحمه الله أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء .

فقال بعض أصحابه فى تأويله : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ، على أى مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق .

وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولاتجالسوهم ، ولاتسمعوا منهم » . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا .

ولاينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

وقالوا : « ما سكت عنه الصحابة – مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم – إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، لذلك قال النبى ﷺ :

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء جدلا .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ، ويعلم طريقه ، ويثنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنجاء ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال : أمسكوا عن القدر » وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأستاذون والقدوة ، ونحن الأتباع ، والتلامذة .

واضطرهم إلى تسليمها : أما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا . فلم يكن الكلام فى حقى كافياً . ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافياً[9] .

نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة ، فى اختلافات الخلق .

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوباً بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات .

والغرض الآن : حكاية حالى ، لا الإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر .

---

(٩) وتحدث الإمام الغزالى فى الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفتها على ماهى عليه وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود .

الفلسفة :

أحاصيلها : ما يذم منها ، وما لا يذم . وما يكفر قائله ، ولا يكفر ، وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ، وبيان ما سرقوه : من كلام أهل الحق ، ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم فى درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحق الخالص من الزيف والبهرج : من جملة كلامهم .

ثم إنى ابتدأت — بعد الفراغ من علم الكلام — بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أهل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من غوره وغائله ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًّا .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم — حيث اشتغلوا بالرد عليهم — إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بعاقل عامى ، فضلا عمن يدعى دقائق العلوم . فعلمت : أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه : رمى فى عماية .

فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، وأنا ممنو[10] بالتدريس والإفادة

(١٠) مبتلى .

لثلثمائة من الطلبة ببغداد .

فأطلعني الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم ، فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه ، قريباً من سنة أعاوده وأردده ، وأتفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه : من خداع ، وتلبيس ، وتحقيق ، وتخيل ، اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإنى رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم - على كثرة أصنافهم - يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق ، والقرب منه .

أصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم :

اعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون ،

والطبيعيون ،

والإلهيون ،

الصنف الأول : الدهريون(١١) وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا

---

(١١) بعد أن ذكر ستلانا » كلام اليعقوبى والغزالى عن الدهرية قال : « فإنا لو حاولنا استنباط الأصول التى اعتمدها اليعقوبى والغزالى فيما ذكراه فى حق الدهرية وجدنا أرسطو يقول فى كتاب : السماء والعالم حاكياً عن « أنباذو قليس » :

الصانع المدبر[١٢] العالم القادر ، وزعموا : أن العالم : لم يزل موجوداً ، كذلك

« إن هذا العالم لم يحدثه أحد من الآلهة ولا من البشر بل كان أبداً » ا هـ ثم قال أرسطو فى المقدمة الثالثة من كتاب السماء ما نصه :

أما من ذهب إلى قول أنبا ذو قليس وديموقريطس فإنه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها فى بعض بل لا حدوث إلا فى الظاهر فإنها موجودة على حدتها . فتفرق بعد الاجتماع . ا هـ .

ثم قال فى كتاب . « الفساد والتكوين » فى المقالة الأولى : وعندهم . أن الأركان إذا اجتمعت فقد تحدث الأجسام وإذا افترقت فسدت الأجسام . وعندهم أيضاً : أن الوجود لا يصير أبداً إلى العدم . ا هـ

وقال ديوجانس فى تاريخ الحكماء.. ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء وأن الوجود لا يصير إلى العدم . ا هـ فإذا ماقابلنا هذه النصوص بما فى تاريخ اليعقوبى وجدناها مطابقة ، فصلاً فصلا ، لما ذكره من مذهب الدهريين .

فتقرر حينئذ : أن الدهرية عند العرب : هم شيعة (ديموقريطس) و (أنباذو قليس وأن الطبيعيين : هم بقية الأقدمين من الفلاسفة .

ومذهب ديموقريطس : هو الغاية القصوى فى فلسفة اليونان أواخر العصر الأول .

اقتبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذى لا يتجزأ .

ومنه أخذ النظام من متكلمى المعتزلة قوله بالكون .

ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم فى إنكار البارى ووحدة الوجود .

فمن طابق قول ديموقريطس بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة فى عصرنا هذا لما وجد بين القولين تفاوتاً ؛ اللهم إلا مانشأ عن تقدم العلوم فى زماننا .

والحق : أن من اقتصر على الطبيعيات ، ولم يقل بغير المحسات : لايسعه إلا الاقتفاء والتحلى بشعائرهم . مع أن من تبصر فى عواقب الأمور تحقق : أن مثل هذا الرأى : لا يفضى ، فى كل زمان ، إلا لإنكار الحقائق وهدم دعائم العقل ا هـ سنتلانا المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة .

(١٢) إن الحقيقة التى لاجدال فيها هى : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ومن العلماء فى جانب الإيمان .

والإلحاد فى جو الفلاسفة ، وجو العلماء شذوذ .

ومما لاشك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤلهون فسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأفلوطين ، وديكارت من المؤلهين .

وإذا كان الإلحاد الفلسفى شذوذاً . فإن ذلك لاينفى أنه حقيقة موجودة وأن له ممثلين باستمرار ، وهم – على حد تعبير الإمام الغزالى – جحدو الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً »

وديموقريطس فى العهد اليونانى هو الذى حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً ! وكانت فكرته هى :

أن المادة قديمة ، وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء . أو الذرات : دائمة التحرك فى الفضاء اللانهائى . ومن اجتماعها تتكون الأجسام وبافتراقها تفنى . وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولاهدف : إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة ، وإن كانت قديمة ، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً فى العصور الحديثة وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها .

إنها فكرة الماديين المحدثين كما كانت فكرة القدماء ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا فى كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء فى سهولة وفى قوة على هذا المذهب وكذلك فعل المحدثون وكانت حجتهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها لايتأتى له أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجج القدماء الأستاذ سانتلانا فى المخطوط المعنون بعنوان : « المذاهب الإسلامية » . . ونحن نورد تلخيصه الرائع فيم يلى :

(أ) وأما القول بالطبيعة . وأن لا شىء غيرها : فهو لايرضى العاقل المتبصر ! كأنه يقول :

نعم . أنا لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة من أصول الموجودات ، وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت ؟ ليت شعرى ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ؟ وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها وقواها ؟ ! ! وكيف بقيت على تألفها ؟ ! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ ! !

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محرك لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس وعدم القيام !

هذا لعمري ، كمثل من وضع حروف المعجم فى ظروف ، أو صندوق ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم ، طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة فى المنطق أوكتاب فى الهندسة دقيق ! !

أليس ذلك من السفه البين ، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف ! !

فكيف يتصور حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتضافر الأجزاء ، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض . من حركات اتفاقية فى خلاء لانهاية له ؟ ! !

قال أرسطو فى كتاب : (سمع الكيان)

(إن كل نظام يدل على وجود العقل) .

(ب) وفضلا عن هذافإن ما يحصل اتفاقاً لايحصل إلا مرة واحدة . ولايتكرر ولايسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولايقبل القياس . بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية .

(حـ) هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شىء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ ! !

وهى – مع ما فيها ، من العجز والقصور وكثرة الخطأ – من أظهر هذه الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .

ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية ، لما بينها من المغايرة الأصلية . فوجود هذه القوة يستدعى وجود جوهر يجانسها ويماثلها ، ليكون أصلا لها ومركزاً . هل يحتمل ، مانشاهده من تصور المعقولات ، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا وتركيب القياسات ، ليس هو فى نفس الأمر ، إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ! !

هل يحتمل ، أن ما تضمنته عقولنا ، من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة كالمنطق ، والرياضيات والإلهيات ، ومافتنت به القلوب ، من الشعر الرائق والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء ؟ !

وكانبعاث النار من اصطكاك الحجر وذلك فى خصوص النار إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها فمن باب أحرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً فى درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلا لما هو أرفع ، وهذا ما تبعده وتأنفه

بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة (١٣) .

والصنف الثانى : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم : عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى

الفطرة السليمة .

(١٣) يقول ستلانا أيضا :

« من تبصر فى عواقب الأمور تحقق ، أن مثل هذا الرأى لايفضى فى كل زمان إلا إلى إنكار الحقائق وهدم دعائم العقل كيف لا ومن قال : إنه ليس فى الوجود إلا محس ولاشىء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟ »

وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسى فى شرح المحصل حيث قال نقلا عن أرسطو وغيره : الحس إدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بغير الحس .

وليس من شأن الحس التأليف الحكمى ، لأنه إدراك فقط فلا شىء من الأحكام محسة أصلا ، فإذن كل ماهو محس لايمكن أن يوصف من حيث كونه محسًّا . بكونه يقينياً أو غير يقينى أو حقًّا أو باطلاً أو صواباً أو غلطاً فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام ا هـ . وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه .

على أن المدرَك والمدرك لا زالا يتغيران فكيف يحكم به على غيره ، وكيف نبنى عليه حكماً عقليًّا ، وكيف نبنى على حقيقته إذ كل ذلك موقوف على ماهو غير الحس ، فإنى إذا تصورت مثلا أنى قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حد الإدراك الحسى ، وأدخلت فيه حكماً عقليا ليس له بالحس تعلق .

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلا الشك فى الحقائق ، كما وقع فى اليونان فى أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيا بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة -- ظهر عندهم -- لاعتدال المزاج -- تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم إذا انعدم ، فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط »[١٤] وهو

(١٤) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التى شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الأخلاقية التى عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .

عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد وجاهد فى سبيل الحق حتى لقى مصرعه على أيدى حاسديه من أنصار الباطل . فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق فى كل زمان ومكان وتوحى إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .

ومنهجه فى البحث مشهور . والحديث التالى يعطينا صورة منه وقد جرى بينه وبين أرسطو ديموس الذى كان ينكر الإله ، ومنه نستبين أيضاً بعض أفكاره .

قال سقراط : أى الناس من يعجبك براعته فى الصنائع ؟ فقال :

نعم . وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان بعده أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأناً ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقال : من يصنع الصور الحية . اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق . لامن عمل العقل . قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما

أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس » .

و « أرسطاطاليس » هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم .

وهم بجملتهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون[١٥] وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ، ردًّا لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من

قولك فى تلك الأشياء ؟ ماهى التى عندك من فعل العقل ، وماهى التى عندك من فعل الاتفاق ؟

قال : لاشك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .

قال سقراط : أولست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ فأعطاه البصر ، والأذنين ؛ ليبصر ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً . ومافائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المر والحلو والمز ، لو لم يكن لسان نذوق به . إن بصرنا معرض للآفات : أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ؟ فجعلت الأجفان كالأبواب تمنع مايصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيها من اضرار الرياح ، وماقولك فى آلة السمع ، وهى تقبل جميع الأصوات ولاتمتلئ أبداً ؟ أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت أسنانها المقدمة ؟ وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها إلى الاضراس فتدقها دقا ؟

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك : هل هى من فعل الاتفاق أو من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا فى ذلك ، لانشك فى أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته من مخطوط « سنتلانا » .

(١٥) فيلسوف يونانى ولد سنة ٤٢٩ . وتوفى سنة ٣٤٧ ق م ويطلق عليه (أفلاطون الإلهى) ذلك أن الروحانية : تحتل من فلسفته المركز الرئيسى .

ونظريته فى (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات وكتاب (الجمهورية) .

رذائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا و الفارابى وأمثالها .

على أنه لم يقم بنقل علم : أرسطاطاليس[١٦] أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر فى ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلا ، فلنفصله .

أقسام علومهم :

اعلم : أن علومهم - بالنسبة إلى الغرض الذى نطلبه ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

١ - أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هى أمور برهانية ، لا

---

(١٦) أرسطو (٣٨٤ - ٢٢٢ ق م) هو أعلم فلاسفة اليونان الأقدمين ويعده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن وهو مقدونى الأصل : رحل إلى أثينا وتتلمذ على أفلاطون ولازمه ويسمى أتباعه (بالمشائين) ويلقب هو بـ « المعلم الأول » لأنه أول من رتب المنطق ونظمه وكونه علماً له حدوده وأهدافه وقد طلب إليه الملك فيليبس المقدونى تعليم ابنه الإسكندر فأخذ يعلمه ثلاث سنوات وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب « الأخلاق) و (الكون والفساد) و (السياسة) ترجمها الأستاذ أحمد لطفى السيد وترجم له الأستاذ الاهوانى كتاب النفس .

سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ، ومعرفتها .

وقد تولدت منها آفتان :

الآفة الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها : فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ، وفى وثاقة البرهان ، كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم ، وتعطيلهم ، وتهاونهم بالشرع ، ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ، ويقول ، لو كان الدين حقًّا ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل على أن الحق : هو الجحد والإنكار للدين . وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه !

وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه ، والكلام ، حاذقاً فى الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق . وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها ، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى ، وفى الإلهيات تخمينى ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه ، فهذا إذا قرر على هذا الذى انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى وشقوة البطالة ، وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم[١٧] ،

---

(١٧) إن الرياضيات الآن لم تعد تابعة للفلسفة ، أو علماً من علومها ، وإنما هى مادة مستقلة لاغنى عنها للمجتمع الإنسانى ، وهى حينما تدرس لا يفكر الدارس لها فى أمور الدين ولافى مبادئه ولعل وضعها

فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيها ، إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغى أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ؛ فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم فى الكسوف ، والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك فى برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبًّا ، وللإسلام بغضًا .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس فى الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى ، والإثبات ، ولا فى هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله عليه السلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى ، لا ينخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الصلاة » .

ليس فى هذا إنكار علم الحساب ، المعرف بمسير الشمس ، والقمر ، واجتماعهما ، أو مقابلتهما على وجه الخصوص .

أما قوله ، عليه السلام : « لكن الله إذا تجلى لشىء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة فى الصحاح أصلا .

فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

فى أيام الإمام الغزالى كان غير وضعها الآن وما من شك فى أن الإمام الغزالى – وهو واسع الأفق مستنير – لو عاش بيننا الآن لما قال ذلك .

٢ – وأما المنطقيات : فلا يتعلق شىء منها بالدين ، نفياً وإثباتاً ، بل هو النظر فى طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها .

وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .

وأن العلم : إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان .

وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر فى الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات ، والتشعيبات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (ا) (ب) ، لزم أن بعض (ب) (ا) أى : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية . وأى تعلق لهذا بمهات الدين ، حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره – عند أهل المنطق – إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر ، بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على هذا الإنكار .

نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما ينظر فى المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحاً فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ – وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا فى مسائل معينة ، ذكرناها فى كتاب : « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها .

وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هى مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لا فعل لشىء منها بذاته عن ذاته .

٤ – وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها .

ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابى (١٨) .

---

(١٨) الفارابى : (٢٦٠ – ٣٢٩) ولد فى فاراب . وهو إقليم فارسى فى تخوم بلاد الترك رحل إلى بغداد ثم استقر به المقام فى كنف سيف الدولة يعيش عيشة الزهد ، موجها كل همه إلى الدراسة والتأمل . يقول ابن خلكان : وكان مدة مقامه بدمشق لايكون – غالباً – إلا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه .

وكان الفارابى يحسن الموسيق تلحيناً وتوقيعاً ، حتى ليحكى ابن خلكان أن الآلة الموسيقية : القانون إنما هى من وضعه ، وقد أطلق عليه المسلمون المعلم الثانى ، كما أطلق على أرسطو : المعلم الأول .

وتقدير المؤرخين متفاوت ، فمنهم من يقدمه على ابن سينا ومنهم من يقدم ابن سينا عليه .

وابن سينا[١٩] .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشرة .

ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهافت » .
أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك فى قولهم :

١ – إن الأجساد لا تحشر[٢٠] ، وإنما المثاب ، والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

---

(١٩) ابن سينا : (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة الإسلام كما كان له فى الطب قدم راسخة وفهم دقيق وقد ألف فيه كتاب : القانون الذى كان يدرس فى معاهد أوربا عدة قرون .
أما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ومن أشهرها كتاب : الإشارات وكتاب الشفاء وكتاب النجاة .

(٢٠) لعل من الإنصاف ، الذى يدعو إليه دائما الإمام الغزالى ، أن نذكر رأى ابن رشد فى المسائل الثلاث التى كفر بها الإمام الغزالى الفلاسفة .

نذكر رأى ابن رشد ، مختصراً عن كتابى : فصل المقال : والكشف عن مناهج الأدلة يقول ابن رشد :

والمعاد : مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء وإنما اختلفت الشرائع فى صفة وجوده ، ولم تختلف فى الحقيقة فى وجوده ، وإنما اختلفت فى الشاهدات التى مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة : وذلك أن من الشرائع من جعله روحانيًّا ، أعنى للنفوس ، ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً ، والاتفاق فى هذه المسألة مبنى على اتفاق الوحى فى ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع فى ذلك . أعنى أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين ؟ أخروية ودنيوية ، وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل .

ثم أخذ ابن رشد فى بيان هذه الأصول ، من العقل والنقل ، ثم قال : فالشرائع كلها كما قلنا : متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالا من السعادة أو الشقاء ولكنها مختلفة فى تمثيل هذه الأحوال ، وتفهيم وجودها للناس ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهاما لأكثر الناس ، وأكثر تحريكاً لنفوسهم إلى ما هنالك . والأكثرون هم المقصود الأول بالشرائع .

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

وأما التمثيل الروحانى فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس الجمهور إلى ما هنالك والجمهور أقل رغبة فيه وخوفاً له ، منهم فى التمثيل الجسمانى . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسمانى : أشد تحريكاً إلى ما هنالك من الروحانى ، والروحانى أشد قبولا عند المتكلمين المجادلين من الناس ، وهم الأقل .

ولهذا المعنى : نجد أهل الإسلام – فى فهم التمثيل الذى جاء فى ملتنا فى أحوال المعاد – ثلاث فرق :

فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ههنا من النعيم واللذة . أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس : وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع ، أعنى أن ذلك دائم وهذا منقطع . وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت أن الموجود الممثل بهذه المحسات : هو روحانى ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة مشهورة فلا معنى لتعديدها .

وطائفة رأت أنه جسمانى ، لكن اعتقدت أن تلك الجسمانية – الموجودة هنالك – مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية ولهذه أيضاً حجج من الشرع .

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأى لأنه روى عنه أنه قال :

ليس فى الدنيا من الآخرة إلا أسماء ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أليق بالخواص وذلك أن إمكان هذا الرأى : ينبنى على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع أحدها : أن النفس باقية .

والثانى : أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام أخر المحال الذى يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها .

وذلك : أنه يظهر أن مواد الأجسام التى ههنا توجد متعاقبة ، ومنتقلة من جسم إلى جسم ، أعنى : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، وفى أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هى واحدة .

مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام أخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق فى هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره فيها . بعد أن يكون نظراً لا يفضى إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع والعقول .

٢ – ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات[٢١] .

وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزُب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ، ولا فى الأرض » .

٣ – ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته[٢٢] فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل .

---

(٢١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالى قوله : إن الفلاسفة : يرون أنه سبحانه ، لايعلم الجزئيات ثم يقول : « ليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون (الفلاسفة) أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذى من شرطه الحدوث بحدوثها إذ كان (علم الله) علة لها ، لامعلولا عنها ، كالحال فى العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذى يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه عالم بالأشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لامن جهة أنه موجود فقط أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير) وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هنالك للموجودات علم آخر ، لايكيف ، وهو علم القديم سبحانه ، وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات وهم يرون أنه سبب الإنذارات فى المنامات ، والوحى ، وغير ذلك من أنواع الإلهامات .

(٢٢) يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم . أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عندى – بين المتكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين ، يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء ، وذلك أنهم اتفقوا على أن ههنا ثلاثة أصناف من الموجودات ، طرفان ، وواسطة بين الطرفين فاتفقوا فى تسمية الطرفين ، واختلفوا فى الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شىء غيره وعن شىء ، أعنى عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه – أعنى على وجوده – وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكوينها بالحس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعريين ، على تسميتها محدثة .

وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شىء ، ولاعن شىء ، ولاتقدمه زمان . وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذى هو فاعل الكل ، وموجده والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذى بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شىء ، ولاتقدمه

زمان ، ولكنه موجود عن شيء – أعنى عن فاعل – وهذا هو العالم بأسره . والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الزمان الماضى ، والوجود الماضى :

فالمتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . وأرسطو وفرقته يرون أنه : غير متناه ، كالحال فى المستقبل . فهذا الموجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهاً من الوجود الكائن المحدث ، ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه مافيه من شبه القديم ، على مافيه من شبه المحدث ، سماه قديماً ، ومن غلب عليه مافيه من شبه المحدث ، سماه محدثاً . وهو فى الحقيقة ليس محدثاً حقيقيًّا ، ولاقديماً حقيقيًّا ، فإن المحدث الحقيقى فاسد ضرورة والقديم الحقيقى ليس له علة .

ومنهم من سماه محدثاً أزليًّا ، وهو أفلاطون وشيعته ، لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضى . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لايكفر ، فإن الآراء التى شأنها هذا ، يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة ، أعنى أن اسم القدم والحدوث فى العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا : إن الأمر ليس كذلك .

وهذا كله . مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، فى الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين – أعنى غير منقطع – وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود – وهو العرش – والماء – وزماناً قبل هذا الزمان ، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركات الفلك وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانيا بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره أن السموات والأرض خلقت من شيء .

والمتكلمون : ليسوا فى قولهم أيضاً فى العالم ، على ظاهر الشرع ، بل متأولون فإنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولايوجد هذا فى نص أبدا ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات ، أن الإجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذى قلناه عن الشرع فى وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين . وإما مخطئين معذورين فإن التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم فى النفس ، هو شيء اضطرارى ، لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق كما لنا أن نقوم أولا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ،

٤ – وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها : قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا فى كتاب : « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه .

٥ – وأما السياسات : فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء .

٦ – وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها . ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون ، المثابرون على ذكر الله ، تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله تعالى ، بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم .

ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يخلى

فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له ، إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، خصهم الله بالتأويل .

الله ، سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد فى الخبر حيث قال عليه السلام : « بهم تمطرون ، وبهم ترزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف » .

وكانوا فى سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية ، بكتبهم آفتان :

١ – آفة فى حق القابل .

٢ – آفة فى حق الراد .

٣ – أما الآفة التى فى حق الراد فعظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً فى كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ينبغى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولا إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذى يسمع من النصرانى قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصرانى » ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى : كافر ، باعتبار هذا القول ، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد – عليه السلام – فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغى أن يُخالف فى غير ما هو به كافر ، مما هو حق فى نفسه ، وإن كان أيضاً حقًّا عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حيث قال « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله » .

والعاقل يعرف الحق ثم ينظر فى نفس القول ، فإن كان حقًّا قبله سواء كان قائله مبطلاً ، أو محقًّا ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل

الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب : الرغام[23] . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده فى كيس القلاب ، وانتزع الإبريز الخالص ، من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلاب القروى ، دون الصيرفى البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق . ويصد عن مس الحية الصبى ، دون المعزم البارع .

ولعمرى ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة ، وكمال العقل ، فى تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ؛ إذ لا يسلمون من الآفة الثانية التى سنذكرها ، وإن سلموا عن الآفة التى ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا ، فى أسرار علوم الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم .

وزعمت : أن تلك الكلمات من كلام « الأوائل[24] » ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .

وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه مؤيداً بالبرهان ؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغى أن يهجر ، أو ينكر ؟

---

(٢٣) الرغام : التراب

(٢٤) يقصد بـ « الأوائل » الفلاسفة القدماء .

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » أوردها فى كتابه ، مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياه فى كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامى الغمر[٢٥] ، فلا يعاف العسل وإن وجده فى محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامى ، منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة ، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل ، فكونه فى ظرفه ، لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغى أن يوجب له الاستقذار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ؛ ردوه ، وإن كان حقًّا .

فأبداً يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! !

هذه آفة الرد .

٢ – آفة القبول : فإن من نظر فى كتبهم : كإخوان الصفا ، وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما

(٢٥) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

استحسنها ، وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ؛ فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به ، لحسن ظن حصل فيما رآه ، واستحسنه .

وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من الغدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات ، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزّم ألا يمس الحية بين يدى ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتدى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره ؛ بأن يحذر هو نفسه ، ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله .

وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير ، إذا أدخل يده فى كيس القلاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، واطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه : كذلك العالم .

وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحية التى هى مركز السم ، وجب تعريفه .

والفقير المضطر إلى المال ، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب ، وجب تنبيهه على أن نُفرته جهل محض ، هو سبب حرمانه من الفائدة

التى هى مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد : لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الحق باطلا ، كما لا يجعل الباطل حقًّا .

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

مذهب التعليم وغائلته :

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهيمه ، وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات .

وكانت قد نبغت نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق ، تحدثهم بمعرفة معنى الأمور ، من جهة الإمام المعصوم ، القائم بالحق ، عنَّ لى : أن أبحث عن مقالاتهم ؛ لأطلع على ما فى كتبهم .

ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب ، يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته ، وصار ذلك مستحثًّا من خارج ضميمة للباعث الأصلى من الباطن .

فابتدأت بطلب كتبهم ، وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة ، التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً ، مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتى فى تقرير حجتهم ، وقال : « هذا سعى لهم ، إنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الإنكار من وجهة : حق ، فلقد

أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى[٢٦] ، رحمهما الله ، تصنيفه فى الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث :

الرد على البدعة فرض .

فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا ، ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية .

نعم . . ينبغى ألا يتكلف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلىّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين ، فى الرد عليهم ، فإنهم لم يفهموا بعد حجتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسى أن يظن بى الغفلة عن أصل حجتهم ؛ فلذلك أوردتها ولا أن يظن بى أنى وإن سمعتها فلم أفهمها ، فلذلك قررتها .

---

(٢٦) يقول عنه القشيرى : عديم النظير فى زمانه : علماً ، وورعاً ومعاملة وحالا ؛ بصرى الأصل . مات بـ « بغداد » سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا . والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبى والجنيد بن محمد أبو محمد رويم وأبو العباس بن عطاء وعمر بن عثمان المكى . لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق .

ومما يروى عنه : قوله من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة .

وقد ألف كتباً كثيرة ، يوجد بعضها مخطوطاً فى دار الكتب المصرية وفى مكتبة الجامعة .

وأنفس ما نعرف من كتبه : كتاب الرعاية لحقوق الله وقد طبعته الآنسة مرجريت سميث وطبعناه فى القاهرة طبعة متقنة . وقد طبع له كتاب التوهم بالقاهرة .

والمقصود أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت البدعة – مع ضعفها – إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم فى كل ما نطقوا به فجاحدوهم فى دعواهم « الحاجة إلى التعليم ، والمعلم » ودعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » . وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين فى مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقه ؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ؛ وأنه لابد أن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو : محمد ، ﷺ .

فإذا قالوا : هو ميت .

فنقول : فمعلمكم غائب

فإذا قالوا : معلمنا علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مشكل .

فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم ؛ إذ قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ﴾ وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبقى قولهم : كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ أبالنص ؟ ولم تسمعوه ؟ أم

بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ؟

فنقول : نفعل ما فعله معاذ ؛ إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، إلى اليمن [٢٧] . أى نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص . فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة ، إذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » فكذلك فى جميع المجتهدات .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير . وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطناً بإخفاء ماله . ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه .

---

(٢٧) حينما أراد رسول الله ﷺ أن يبعث معاذاً قاضياً باليمن قال له :
بم تقضى يامعاذ ؟
فقال : بما فى كتاب الله .
قال : فإن لم تجد ؟
قال : بما فى سنة رسول الله
قال : فإن لم تجد ؟
قال : أجتهد رأيى
فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله . .

فإن قال : ظن مخالفه كظنه .

فنقول : هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد فى القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره .

وإن قال : فالمقلد يتبع أبا حنيفة ، والشافعى – رحمهما الله – أم غيرهما ؟ .

فأقول : فالمقلد فى القبلة عند الاشتباه ، إذ اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع ؟

فسيقول : له مع نفسه اجتهاد فى معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك فى المذاهب .

فرد الخلق إلى الاجتهاد – ضرورة – الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد يخطئون بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » أى ، أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطئوا فيه ، ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء فى مثل هذه المجتهدات فكيف نطمع فى ذلك ؟

ولهم ها هنا سؤالان .

أحدهما قولهم : هذا وإن صح فى المجتهدات ، فلا يصح فى قواعد العقائد ، إذ المخطئ غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه يُعرفُ الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ، ذكرتها فى كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفون فى ذلك الميزان .

فأقول : لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق : لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق ، غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق فى الكلاميات .

فإن قال : فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان فلم لا نرفع الخلاف بين الخلق ؟

فأقول : لو أصغوا إلىّ لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله ، لتعلم أنه حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ، ولا يصغون بأجمعهم .

بل قد أصغى إلىّ طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع علىّ رضى الله عنه ، وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر ولا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وإيتام الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال ، وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد :

فإن قال : ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، ولم يلزمه الإصغاء إليك دون

خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم ؟

وهذا هو سؤالهم الثانى .

فأقول : هذا أولا ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من مخالفيك ، وأكثر أهل العلم يخالفونك فليت شعرى ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامى منصوص عليه ، فمن يصدقك فى دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحيراً فى أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدقى ، أنى أحيى أباك فأحياه ، فناطقنى بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلى ، والنظر العقلى لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده – وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور – فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التى ينكرها ، وخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيما ، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا جواباً ، لم يقدروا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعاً إلى الإفهام ، فلا يصلح للإفحام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ! جوابه أن المتحير لو قال أنا متحير ، ولم يعين المسألة التى هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض يقول : أنا مريض ، ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو غيرهما ، فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ما هو متحير فيه ، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التى لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذى يوثق بكل ما يوزن به فيفهم الميزان ، ويفهم أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب ، نفس الحساب وكون المحاسب المعلم عالما بالحساب ، وصادقاً فيه .

وقد أوضحت ذلك فى كتاب « القسطاس المستقيم » فى مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك فى كتاب « المستظهرى » أولا .

وفى كتاب « حجة البيان » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرض على ببغداد

وفى كتاب : « مفصل الخلاف » الذى هو اثنا عشر فصلا ، ثالثاً وهو جواب كلام عرض على بهمدان .

وفى كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذى عرض على بطوس .

وفى كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات

الآراء بل هم من عجزهم عن إقامة البرهان على تعين الإمام ، طالما جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم . وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا عن الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لابد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب العلم ، وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا ، كالمتضمخ بالنجاسة ، يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، ووجد متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ماذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس ، وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذاهب الفلاسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس ، بل استرك كلامه ، واسترذله وهو المحكى فى كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر ، فى طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم !

فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهرهم ، وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ، ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى ، مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : هات علمه ، وأفدنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه ، فإنما غرضى هذا القدر فقط إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلهم[٢٨] فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم .

* * *

طرق الصوفية :

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ؛ حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » لأبى طالب المكى رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد[٢٩] .

---

(٢٨) تبغضهم .

(٢٩) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ، ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج : فلذلك يقال له : القواريرى . وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ .

قال الروذبارى : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث . لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

والشبلى [٣٠] ، وأبى يزيد البسطامى [٣١] ، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه من شيء ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه ، ومامعه من السكر شيء .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) .

(٣٠) بغدادى المولد والمنشأ وأصله من أسروشنه صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته حالا وظرفاً وعلماً ، مالكى المذهب عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وقبره به (بغداد) .

وكان الشبلى إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمه ربى فأنا أول من يعظمه .

(٣١) كان من كبار الزاهدين العابدين ، قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين .

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟

ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة (انظر الرسالة القشيرية) .

والطبيب فى حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقيناً : أنهم أرباب الأحوال ، لاأصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معى – من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية ، والعقلية – إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة ، وباليوم الآخر !

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان ، كانت قد رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لايتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من الجوانب .

ولاحظت أعمالى – وأحسنها التدريس والتعليم – فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولانافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فإذا

هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال .

فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل . فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ! !

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافى من منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ولايتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة [٣٢] وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار : إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إلى ، فكان

(٣٢) فى نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

لاينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان ، حزناً فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لاينساغ لى ثريد ، ولاتنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم !

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له . فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال والأولاد والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذراً أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أبداً ، واستهدفت للأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، وإعراضى عنهم . وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى . وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف

وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله ، أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لاشغل لى إلا العزلة ، والخلوة والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية . فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم تحركت فى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة ، والمدينة وزيارة رسول الله ، ﷺ ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها ، فتدفعنى عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون

لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها -- وهى أول شروطها -- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها -- الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة -- استغراق القلب بالكلية بذكر الله .

وآخرها الفناء بالكلية فى الله .

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى مايكاد يدخل تحت الاختيار والكسب : من أوائلها ، وهى ، على التحقيق : أول الطريقة ، ومقابل ذلك : كالدهليز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهد الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة الحلول ،

وطائفة الاتحاد ،

وطائفة الوصول

وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب : « المقصد الأسنى » بل الذى لابسته الحالة لا ينبغى أن يزيد : على أن يقول :

وكان ماكان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيء بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء – على التحقيق – هى بدايات الأنبياء . وكان ذلك أو حال رسول الله – عليه الصلاة والسلام – حيث تبتل ، حين أقبل إلى جبل « حراء » حيث كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه .

وهذه حالة يتحققها من سلك سبيلها . .

فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم لايشقى جليسهم .

ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى «كتاب » عجائب القلب » من كتب إحياء علوم الدين .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق .

والقبول من التسامع ، والتجربة ، بحسن الظن ، إيمان . فهذه ثلاث درجات !

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

ووراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ، ويسخرون ، ويقولون العجب إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى .

﴿ ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ﴾ (٣٣) ﴿ فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ﴾ (٣٤) .

ومما بان لى ، بالضرورة من ممارسة طريقتهم : حقيقة النبوة ، وخاصيتها ولابد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

---

(٣٣) محمد آية : ١٦

(٣٤) محمد آية : ٢٣

حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان – فى أصل الفطرة : خلق خالياً ، ساذجاً ، لاخبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة ، لايحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : ﴿ ومايعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

وإنما خبره فى العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات : خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعنى بالعوالم ، أجناس الموجودات ، فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة وغيرها . واللمس قاصر على الألوان والأصوات قطعاً ، بل هى كالمعدوم فى حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو أوسع عوالم المحسات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات .

ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم المحسات ، فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسات لايوجد منها شىء فى عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ؛ فيخلق له العقل : فيدرك الواجبات ، والجائزات ،

والمستحيلات ، وأموراً لاتوجد فى الأطوار التى قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وماسيكون فى المستقبل ، وأموراً أخر ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز .

وكما أن المميز : لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها ، واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء : أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد فى حقه فيظن أنه غير موجود فى نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقربها .

وقد قرب الله تعالى ، ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً ، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير : وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب — لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لايدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لايدركها مع ركودها ، أولى وأحق ،

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر فى نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك فى النبوة إما أن يقع :

فى إمكانها ، أوفى وجودها ووقوعها .

أو فى حصولها لشخص معين . ودليل إمكانها وجودها .

ودليل وجودها وجود معارف فى العالم لايتصور أن تنال بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم[٣٥] فإن من بحث عنها ، علم – بالضرورة – أنها لاتدرك إلا بإلهام إلهى ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولاسبيل إليه بالتجربة ، فمن الأحكام النجومية ، مالا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان . أن فى الإمكان : وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التى لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل : إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجاً منها : وهو مدركاتك فى النوم ، ومعك علوم من جنسها فى الطب ، والنجوم ، وهى معجزات الأنبياء ؛ ولاسبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا .

وأما ماعدا هذا من خواص النبوة : إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولاتفهمها أصلا ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل فى أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصدق بما لم يحصل بالقياس إليه .

---

(٣٥) لعل الإمام رحمه الله يريد أن يقول : الإنسان فى ابتداء وجوده وخلقه ألهمه الله الأسس التى يبنى عليها تجاربه فى عالم الطب وملاحظته فى علم الفلك .

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك فى شخص معين أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو التواتر والتسامع . فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ، بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم .

ولاتعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعى – رحمه الله – فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما ، وتصانيفهما : فيحصل لك علم ضرورى بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ، ﷺ ، على أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك بتجربة ماقاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم مالم يعلم » .

وكيف صدق فى قوله : « من أعان ظالما ، سلطه الله عليه » .

وكيف صدق فى قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى[٣٦]) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة[٣٧] » .

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة لامن قلب العصا ثعباناً ، وشق

---

(٣٦) مابين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٣٧) وفى سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ : « ومن جعل الهموم همًّا واحداً ، هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديته هلك » .

القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخييل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه ﴿ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ .

وترد عليك أمثلة المعجزات : فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكال والشبهة عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى ، لايمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدرى ، ولايخرج عن جملة ذلك ، ولابتعيين الآحاد ، فهذا هو الإيمان القوى العلمى .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض الذى أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سبب نشر العلم
بعد الإعراض عنه

· ثم إنى واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين ، وبان لى فى أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لا أحصيها : مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهانى ، ومرة بالقبول الإيمانى أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ، ولاينجو ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وله مرض فيه هلاكه الأبدى الأخروى ، كما قال تعالى : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيى ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافى ، وأنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لاسبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لايدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى – على الضرورة – أن أدوية العبادات – بحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء – لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، ولايخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جدًّا من أراد أن يستنبط – بطريق العقل – لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لاعن سر إلهى فيها يقتضيها بطريق الخاصية .

وكما أن فى الأدوية أصولا هى أركانها ، وزوائد هى متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن : متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . وإلى هنا هنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، فى مدة الخلوة والعزلة ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة .

ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة .

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هى أربعة :

١ – سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .
٢ – وسبب من الخائضين فى طريق التصوف .
٣ – وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .
٤ – وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإننى تتبعت ، مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع ؛ وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له ؛ مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر . فدبر نفسك فى طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفى ، الذى هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملا بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع !

فقائل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهلم جرّا ، إلى أمثاله . .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة ،

وقال ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة !

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ،

والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ؛ فكيف أدع اليقين بالشك ؟ .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ؛ وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل ، والتنازع ، والاسترسال ، فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال ، حتى أدخل فى حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى نصر الفارابى .

وهؤلاء المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه ، مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور !

وإذا قيل له :

إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى ؟ فربما يقول :

لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! وربما قال : الشريعة صحيحة والنبوة حق . فإذا قيل له :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتى محترز عن

ذلك ، وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى .

حتى إن ابن سينا فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله ، تعالى ، على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان ، والتزام العبادات : أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافى .

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضرورى لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه الأسباب ، ورأيت نفسى ملية[٣٨] بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح هؤلاء : أيسر عندى من شربة ماء ، لكثرة خوضى فى علومهم ، وطرقهم ، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء ، انقدح فى نفسى أن ذلك متعين ، فى هذا الوقت ، محتوم .

فما تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت فى نفسى : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة . ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر؟

فترخصت ، بينى وبين الله ، تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تعللا بالعجز

---

(٣٨) ألب بالمكان : أقام به ولزمه .

عن إظهار الحق بالحجة ، فقدر الله تعالى : أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حدا كاد ينتهى - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة .

فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم تُرخص نفسك بعسر معاناة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : ألمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [39] .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا ، على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ . [40]

ويقول ، عز وجل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : يس. والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم .

تنزيل العزيز الرحيم .

لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .

---

(٣٩) سورة العنكبوت آيات : ١ - ٣

(٤٠) سورة الأنعام آية : ٣٤

إننا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون .
وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون .
وسواء عليهم أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون .
إنما تنذر من اتبع الذكر﴾ .(٤١)

فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات . فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متواترة تشهد بأن هذه الحركة : مبدأ خير ، ورشد ، قدرها الله ، سبحانه ، على رأس هذه المائة (٤٢) .

وقد وعد الله ، سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة .

فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى ، الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة .

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلا بالبال ، والله تعالى ، مقلب القلوب والأحوال و« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

---

(٤١) سورة يس : آيات ١ - ١١

(٤٢) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقى : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها .

وأنا أعلم : أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ، ونيتى . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتى وقصدى . وأمنيتى : يعلم الله ذلك منى .

وأنا أبغى أن أصلح نفسى ، وغيرى ، ولست أدرى أأصل إلى مرادى ، أم أخترم دون غرضى ؟ ولكن أؤمن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك لكنه حركنى . وأنى لم أعمل ، لكنه استعملنى . فأسأله : أن يصلحنى أولا . ثم يصلح بى ، ويهدينى . ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقًّا ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ، ويرزقنى اجتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه . من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم ، وإنقاذهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه ما ذكرناه فى كتاب : « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره فى هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم فى سبعة أنواع ، وكشفناها فى كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة : فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرها . وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك .

وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم : كالنجوم ، والطب ، والطبيعة ، والسحر ، والطلسمات ، مثلا من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، سوى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق : كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعه أن يكون متبوعاً .

وليس هذا من النبوة فى شىء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان . والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات .

فإن لم يجوز هذا ، فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده .

وإن جوز هذا فقد أثبت أن ها هنا أموراً تسمى خواص لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا ، بل يكاد العقل يكذبها . ويقضى باستحالتها فإن وزن دانق[43] من الأفيون سم قاتل ؛ لأنه يجمد الدم فى العروق ، لفرط برودته والذى يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصرى الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان ومعلوم أن أرطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهم فى الباطن إلى هذا الحد : فلو أخبر طبيعى بهذا ، ولم يجربه ، لقال : هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية ، وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة ، فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد ، فإن انضم إليه حاران فبألا يوجب أولى . ويقدر هذا برهاناً !

---

(٤٣) الدانق بفتح النون وكسرها : سدس الدرهم ،

وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والإلهيات : مبنى على هذا الجنس . فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته .

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع : أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول .

ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون فى الدنيا شيء هو بمقدار حبة ، يوضع فى بلدة ، ليأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه ، فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو فى نفسه ؟ لقال : هذا محال ، وهو من جملة الخرافات ، وهذه حالة النار : ينكرها من لم ير النار . إذا سمعها .

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل .

فنقول للطبيعى : قد اضطررت إلى أن تقول : فى الأفيون خاصية فى التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة ، فلم لا يجوز أن يكون فى الأوضاع الشرعية من الخواص ، فى مداواة القلوب ، وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا ، فيما أوردوه فى كتبهم ، وهى من الخواص العجيبة ، المجربة فى معالجة الحامل ، التى عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

ب	ط	د
ز	هـ	ج
و	ا	ح

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

يكتب على خرقتين ، لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينيها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد فى الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك : وأوردوه فى كتاب « عجائب الخواص » ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما فى جدول واحد : خمسة عشر ، قرأته فى طول الشكل ، أو فى عرضه أو على التأريب .

فليت شعرى ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث هى : لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها : اختلاف هذه الأوقات ، وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات فنقول : أليس يختلف الحكم فى الطالع : بأن تكون الشمس فى وسط السماء ، أو فى الطالع ، أو فى الغارب ، حتى يبنوا على هذا فى تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس فى وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب ، فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : إذا كانت الشمس فى وسط السماء ، ونظر إليها الكوكب الفلانى ، والطالع هو البرج الفلانى ، فلبست ثوباً جديداً فى ذلك الوقت قتلت فى ذلك الثوب ! فإنه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت ، وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات .

فليت شعرى ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف

بأنها خواص معرفتها معجزة لبعض الأنبياء – كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص فى أعداد الركعات ، ورمى الجمار وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلا .

فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح فى نفسى تصديقه ، وسقط من قلبى استبعاده ، ونفرته ؛ وهذا لم أجربه فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟

وإن أقررت بإمكانه فأقول :

إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته ، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهد بعض ذلك .

على أنى أقول : وإن لم تجربه فيقضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً فإنا لو فرضنا رجلا بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه فى معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرًّا كريه المذاق ؟ أيتناوله ؟ أو يكذب ويقول : أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل الشفاء ولم أجربه ؟ فلا شك أنك : تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر فى توقفك !

فإن قلت : فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفته بهذا الطب ؟ فأقول :

وبم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محسا ؟ بل عرفتها بقرائن

أجواله ، وشواهد أعماله فى مصادره ، وموارده علماً ضروريا لا تتمارى فيه » .

ومن نظر فى أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام . وما ورد من الأخبار فى اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه فى جر الناس بأنواع الرفق ، واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم حصل له على علم ضرورى ، بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب الذى أخبر عنه فى القرآن على لسانه ، وفى الأخبار وإلى ما ذكره فى آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره علم — علماً ضرورياً — أنه بلغ الطور الذى وراء العقل وانفتحت له العين التى ينكشف منها الغيب الذى لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التى لا يدركها العقل .

فهذا هو منها تحصيل العلم الضرورى بتصديق النبى عليه الصلاة والسلام ، فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر : يكتفى فى تنبيه المتفلسفة . ذكرناه لشدة الحاجة إليه فى هذا الزمان .

وأما السبب الرابع — وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن تقول : إن العالم الذى تزعم أنه يأكل الحرام معرفته بتحريم ذلك الحرام ، كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير ، والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك فعلمه بمسائل

وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين ، وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح فهذا محمل هفوات العلماء .

الثانى أن يقال للعامى : ينبغى أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه فى الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون له شفيعاً ، حتى يتساهل معه فى أعماله لفضيلة علمه وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن ، فهو وإن ترك العمل يدلى بالعلم . أما أنت أيها العامى ، إذا نظرت إليه ، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ، ولا شفيع لك .

الثالث ، وهو الحقيقة أن العالم الحقيقى لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة . ولا يكون مصرًّا على المعاصى أصلا : إذ العلم الحقيقى ما يعرف أن المعصية : سم مهلك وأن الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس : فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصى إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر فى العثرات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مفتن تواب . وهو بعيد عن الإصرار ، والإكباب .

* * *

هذا ما أردت أن أذكره فى ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقه .

ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

خاطرة[٤٤] حول « المنقذ من الضلال »

أخى الدكتور عبد الحليم محمود ، يعرف – فيما بين إخوة العشيرة – بكنية أبو العارفين وهى تعبير عن الصورة التى يعرفه عليها هذا المحيط الروحى ، فى مجال المقبلين على الله ، من طلاب الحقائق ، والباحثين عن مشارق الأنوار ، وأسرار الغيوب .

والدكتور عبد الحليم يُعرف أيضاً فيما بيننا – نحن المحمديين – بأنه « غزالى مصر» فى هذا العصر . . .

والواقع ، أن الدكتور عبد الحليم فى ذاته ، ظاهرة صوفية ، غير مكررة ، بما يفيض به من القيم ، ومايفاض عليه من المواهب ، وما يفسح له الله تعالى من الوقت ، والمدد ، فيترقرق إنتاجه سلسلا عذباً ، مندمعاً فى رقة ، رابياً متلاحقاً فى قوة ، بين منطوق ، ومكتوب ، يتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح ، ويطمئننا على مستقبل الربانية المقدسة ، ويعطى الناس مثلا حيًّا فى كرامات الأولياء !

قارئ الدكتور عبد الحليم أو سامعه ، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له ؛ أو يسمع منه ، ولكنه يحس القلب والعاطفة ، والعقل والإيمان ، ويبصر الأدب والفضل ، والتواضع والثقة بلا حدود ، كل ذلك ينقدح فى ومضات ،

---

(٤٤) حيثما صدرت الطبعة الخامسة من هذا الكتاب ، تفضل بكتابة هذه الخاطرة الكاتب الكبير صاحب السلوك الصوفى المستنير ، وصاحب القلم الصوفى الملهم ، فضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم الرائد الموفق للعشيرة المحمدية جزاه الله خير الجزاء ، وشكر الله له جميل صنيعه .

ولمحات ، ولفتات ، وملاحظ وقواعد ، وأصول تهتز بالحياة ، وتنفعل بالعلم ، والأصالة والمعرفة ، والصلة بالله ، والغيرة على محارمه ، ويحس المرء منها ابتغاء رضوان الله .

أما أنا فأقرأ له وأسمعه كأنما أقرأ ماكتبته ، أو أسمع ما أتحدث به .

إن إخائى بالدكتور عبد الحليم من نوع فريد ، فقد نلتقى بعد غياب جسدى طويل ، فلا يحدث أحدنا الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذى لا يفارق ظله ظله ، وفى إيجاز قد يصل إلى الاقتضاب ، ثم يقنعنا هذا ، ويكفينا ، ونحصل منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يضيق عنها النطق ، وتعيا بها العبارة ، وتظل قلوبنا تتناجى فى حرارة ، وتتواصى فى لهفة ، كما كانت قبل هذا اللقاء الجسمانى ، ثم بما تحصله هذه القلوب نكتفى ونشتفى ، إلى أن تجمعنا الصدفة ، أو القصد مرة أخرى ، وعندها أعود فأحس كأننا لم نفترق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة « الخامسة » الجديدة من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالى بتقديم وتعليق وتحليل ، ودراسة الأخ الدكتور عبد الحليم محمود فقد صدرت هذه الطبعة فى رجب هذا العام ، واستغرقت ٣٥٠ صحيفة من القطع الكبير ، وأضاف إليها الأستاذ كعادته فى كل طبعة سابقة لهذا الكتاب أبواباً جديدة ، وألواناً مستحدثة دقيقة ، بعيدة العمق عريضة الهدف فى أهم وأخطر المباحث الموصولة بالتصوف الإسلامى ، على المستوى الفكرى الشرقى والغربى معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب الذى كان يباع فى طبعته الأولى بخمسة قروش ، يباع فى هذه الطبعة الأخيرة بخمسين قرشاً تمنحك زبداً نقيًّا ودسماً من العلم ، والمعرفة ، والتاريخ ، والتحقيق ، والاستدلال ، والإيمان ،

والإشراق ، وتعطيك التصوف الإسلامى فى مثل ضوء الشمس بهاء ونقاء ، وسموًّا وخلوداً.

رضى الله عن الأخ الدكتور عبد الحليم محمود ، وزاده مما يحب ويرضى ونفعنى بحبه وإخائه فيه تعالى.

فهرس

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٦٣٠٨
الترقيم الدولى	977-02-6509-8 ISBN

١/٢٠٠٣/٤٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)